الباب الثامن

عضو فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى

فى ضحى أحد الأيام المشمسة من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ وقفت اثنتا عشرة سيارة نقل أمام المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » لنقل الأثاث اللازم لتأثيث مبنى الحزب الجديد • كان الرأى يتجه أساسا الى تأثيث منزل « كارل ليبكنيشت » السابق ، ليكون المقر المركزى للحزب الشيوعى الألمانى ، ثم تبين أن ذلك غير ممكن ، فتقرر اتخاذ مبنى أكبر فى شارع « فال » رقم ٧٦ — ٧٩ فى وسط مدينة برلين •

استمر العمل ليلا ونهارا لتجهيز وتجديد المبنى ، فانتهت هذه العملية بعد وقت قصير ، وأمكن البدء فى التأثيث •

تقرر أن يكون فى الدور الأول فى مقر الحزب الجديد ، مكاتب أعضاء القمة الأربعة « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « فرنس داليم » و « أنتون آكارمان » •

انهمك النجارون فى عملهم ، فجاء « فيلهيلم بيك » وهو نجار سابق ، ولم يكن قد أصبح رئيسا بعد ، بل كان عضوا مسرورا جدا لأنه عاد الى برلين — وارتدى بدلة العمل ، وساعدهم بنفسه ، ولم أره — الا نادرا — مسرورا مثل ما كان فى تلك الأيام •

انتهت عملية النقل من المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » الى مقر الحزب الجديد بعد أسبوع ، وفى نفس الوقت انتقلت أنا و « فالديمار شميت » الى سكن خاص فى شارع « فروشهايم » فى حى « بانكوف » •

تصادقت مع « فالديمار » — الذى ظل فى معسكرات الاعتقال طوال عهد النازيين ، اثنى عشر عاما ، والآن رئيس الحزب الشيوعى فى برلين — منذ الأيام الأولى من مايو • دبر السكن واقترح على أن أنتقل معه •

كذلك بحث قياديون آخرون — ومعظمهم فى « بانكوف » — عن

سكن خاص • ولم يبق الا « المخلصون للخط » فى المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » الذى عرف من الآن فصاعدا على أنه « مبنى سكن العاملين فى اللجنة المركزية » •

انتهت فترة حمى الانتقال — وبدأت الحياة العادية • سكنت مع رئيس الحزب فى برلين ، وكان مقر العمل يدعى : اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى ، فى شارع « فال » رقم ٧٦ — ٩٩ •

قسم العمل بعد النقل مباشرة الى أربعة أقسام تابعة « للأربعة الكبار » ، فأسند الى « فيلهيلم بيك » القيادة العليا ، وكان مسئولا أيضا عن السياسة العامة ، والى « فالتر أولبريخت » الاقتصاد ، والزراعة ، والنقابات وجهاز الدولة ، والى « فرانس داليم » أنظمة الحزب ، والى « أنتون آكارمان » الصحافة ، والتعليم ، والتثقيف الشعبى ، والثقافة الحزبية •

كان « أولبريخت » رئيسى حتى ذلك الحين ، ولكن أظهرت « قيادتى » فى هيئة تحرير جريدة الحزب بأنى سأستمر فى العمل الصحفى ، وفى العمل السياسى الحزبى ، وتحقق ذلك أيضا : لم يكن قد استكمل تأثيث منزلنا ، حين استدعانى « أنتون آكارمان » :

— « لقد رأينا أن تكون نائب رئيس قسم الصحافة فى اللجنة المركزية ، مسرور » ؟

— « طبعا •• جدا ، ومن رئيس قسم الصحافة » ؟

— « ليس عندنا الآن رئيس قسم صحافة ، فستكون وحدك مؤقتا » •

وسرعان ما كثر العمل ، فامتلأت فى الأيام القليلة الأولى رفوف الكتب ، وخزائن المجلات ، حتى التقارير والبحوث التى لم تكن متعلقة تعلقا مباشرا بتلك المسائل التى تهتم بها الأقسام الأخرى ، أرسلت ببساطة الى قسم الصحافة ، كذلك كثر الزوار ، فبدأت أحس بأنى أتولى رئاسة قسم مشغول بكل الأشياء ، التى لا تريد الأقسام الأخرى انهاءها وأصبحت عادة مألوفة أيضا أن يرسل الى المندوبون السوفييت ولم يكن عددهم قليلا — الذين يريدون أن يأخذوا « صورة عامة » عن سير العمل • وكان لزاما على صابرا أن أشرح للزوار — يوميا أكثر من مرة — أهمية البيان التأسيسى للجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية وأهدافها ، واعادة تكوين النقابات من جديد ، و « الخط العام » •

وأضيف الى ذلك الاتصال بـ« جريدة الشعب الألمانية » • وعلاوة على ذلك فقد تحتم على الاشتراك فى الاجتماعات ، والقيام بمهمات خاصة ، والسفر مع « أولبريخت » و « آكارمان » وترجمة بحوث من الروسية ، وكتابة تقارير للجريدة الناطقة بلسان الحزب ، أو تجهيز خطبة ، وكتابة بيان اللجنة المركزية الذى سيذاع فى ٧ نوفمبر •

وهكذا كان يوم العمل مملوءا ، وكان يوم عمل طويل ! كانت فترة العمل الرسمية آنذاك فى اللجنة المركزية ، للحزب الشيوعى الألمانى عشر ساعات فى اليوم ، فالزمن الرسمى للعمل من ٩ صباحا حتى ٧ مساء ، ولكنها كانت تزيد عن ذلك فى معظم الأيام ، وكنت ترى كثيرا من القياديين فى ساعة متأخرة من الليل فى مقر الحزب •

* * *

« تكليف خاص » الاصلاح الزراعى

استدعانى « أولبريخت » ذات يوم بعد الظهر :

« اعمل حسابك على أن تنتهى من عمل ما فى يدك اليوم ، حتى لا يكون عندك عمل غدا ، فسوف تسافر معى الى مقاطعة « براندينبرج » •

وعندما وصلت فى صباح اليوم التالى الى مقر اللجنة المركزية ، كان « أولبريخت » على استعداد للسفر ، فعرفنى على اثنين من كبار أعضاء الحزب الشيوعى الروسى المتخصصين فى الشئون الزراعية :

— « سوف نسافر سويا مع هذين الرفيقين » •

ثم تحركنا بعد دقائق قليلة ، فى العربتين الأنيقتين الـ« ليموزين » الخاصتين باللجنة المركزية • وشرح لى « أولبريخت » فى الطريق طبيعة هذه المهمة •

— « يجب أن ندرس بعض مسائل تسليم الانتاج الزراعى ، ونهيىء الوضع لقانون الاصلاح الزراعى » •

دارت مناقشات فى أماكن مختلفة فى مقاطعة « براندينبرج » — ومناقشة موسعة بشكل خاص فى « كيرتس » — مع الحكمداريين والعمد ، ومع الأخصائيين الزراعيين ، فتعجبت من معلومات « أولبريخت » التفصيلية المضبوطة عن حصة تسليم المحاصيل الزراعية للحكومة فى

عهد النازية • وازدادت دهشتى أيضا عندما فتح المرافقان السوفييتيان — وكانا يتحدثان اللغة الألمانية بطلاقة — حقيبتيهما ، وأخرجا منها رزما من الاستمارات والأوامر والوثائق عن حصة تسليم المواد الزراعية للحكومة فى عهد النازية ، ووضعها على المنضدة • ازدادت حدة المناقشة بنوع خاص مع أخصائيين « هواهما مع الامبراطورية » • كان لدى « أولبريخت » معلومات تفصيلية عن كل شىء ، فتواترت الأسئلة واحدا بعد الآخر ، وكانت اجابة موظفى الامبراطورية السابقين مختصرة جدا ، فشرع « أولبريخت » أجنحته ، كعادته عندما تتعلق المناقشة بمسائل تنظيمية عملية •

لم أفهم كثيرا من هذا الموضوع كله ، فنحن لم نتعلم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية هذه المسألة بدقة ، ولكن على قدر ما أمكننى تابعت المناقشة ، فقد كانت تدور حول كيفية امكان تعديل تسليم المحاصيل الزراعية ، كى تتناسب مع الظروف الجديدة • ونوقشت بالتفصيل مسألة عدم القسوة على المزارعين فى اللجنةِ التى يفرض عليهم تسليمها ، وأعتقد أنهم قرروا فى ذلك اليوم مقدار « الكمية التى تترك للفلاح » وكانت قليلة جدا •

قضينا اليوم كله فى مناقشت مع الأخصائيين حول مشاكل تسليم المحصول الزراعى الى الحكومة ، ولم نتحدث فى موضوع الاصلاح الزراعى الذى كان يثير اهتمامى جدا •

وقبل مغادرة « كيريتس » عقدت محادثة بين « أولبريخت » والضابطين ، فقال أحدهما :

« الأشياء واضحة جدا الآن ؛ فنستطيع تجهيز الاقتراحات اللازمة وربما يكون من الأفضل التوقف فى أى قرية صغيرة ، لنتحدث مع بعض الفلاحين عن الاصلاح الزراعى » •

توقفنا فى طريقنا من « كيريتس » الى برلين فى قرية صغيرة ؛ فذهل رئيس الناحية من زيارة الضيوف الكبار المفاجئة ، فقال له « أولبريخت » : « هل يمكن أن نجمع كل الفلاحين » ؟

— « طبعا » •

— « كم من الوقت يستغرق هذا » ؟

— « قريتنا ليست كبيرة ، فسيكون كل الفلاحين هنا فى مدى ربع ساعة » •

وفى غضون ذلك تجمع بعض الفلاحين أمام منزل رئيس القرية ، فقيل لهم : « اذهبوا بسرعة ، واجمعوا كل الناس ، فالمسألة هامة جدا » •

وفى هذه الفترة استفسر « أولبريخت » بطريقته المختصرة من رئيس القرية عن الوضع العام فيها ، عن الملكية ، وعن نوعية خصوبة الأرض وعن أشياء زراعية أخرى •

اجتمع الفلاحون بعد حوالى ١٥ — ٢٠ دقيقة ، وتمتم بعضهم بكلمات غيرمفهومة ، ولكنها رنت فى الأذن مثل « نهاركم سعيد » ونظر البعض الآخر نظرة ارتياب وشك •

سأل « أولبريخت » عن المحصول وعن تسليم الحصة الى الحكومة ، ولكن لم يجب اجابة ذاتية الا ثلاثة فقط بعد تردد طويل ، فكان بعضهم ينظر مرتابا الى كلا الضابطين اللذين وقفا فى أحد أركان الحجرة •

ولم يزدد اشتراكهم فى النقاش الا بعد أن سأل الضابطان — وهما يبتسمان — بعض الأسئلة باللغة الألمانية ، وقدما أيضا بعض السجائر للفلاحين • وشيئا فشيئا بدأ الفلاحون من أنفسهم يتحدثون عن خصوبة الأرض • وعندئذ أدار « أولبريخت » دفة الحديث الى الهدف المحدد : الاصلاح الزراعى • تحدث « أولبريخت » عن توزيع أراضى الاقطاعيين ، فذكر أن الفلاحين سيحصلون على مساحات أكبر •

— « اشرحوا لنا مغزى هذا الكلام » !

أعادوا النظر الينا بارتياب ، وساد صمت تام • وأخيرا قطع أحد الفلاحين هذا الصمت :

— « نعم •• لن يكون الوضع سيئا ، لو حصلنا على أرض أكثر » •

وبعد أن شرح رئيس القرية ، الموضوع مرة أخرى ، وافق أيضا بعض الفلاحين ، وهز الصامتون رؤوسهم بالموافقة •

لم يكن الوضع كما تصورت بأن الفلاحين سيتحمسون تحمسا شديدا للاصلاح الزراعى ، ولكن عبر كل الحاضرين عن موافقتهم ، وان اختلفت طرق التعبير •

كنت أتمنى أن أمكث مع الفلاحين وقتا أطول ، ولكن « أولبريخت » نظر الى ساعته ، فاقترح الضابطان السوفييتيان الاكتفاء بهذا •

توقعت أن نتوقف فى قرية أخرى لنختبر رد فعل الفلاحين على مشروع الاصلاح الزراعى فى أماكن عدة ، ولكن « أولبريخت » والضابطين السوفييتيين رأوا أن ذلك غير ضرورى •

وصلنا الى برلين فى المساء ، ثم وضح لى بعد أيام قليلة أنه لم تقتصر نتيجة هذه الرحلة على تحديد ما يترك للفلاحين من الانتاج الزراعى ، بل كان من نتيجتها أيضا قرار البدء فى تنفيذ الاصلاح الزراعى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى (١) •

قال لى « آكارمان » بعد أيام قليلة :

« يجب أن تعمل اليوم مدة طول ، وعليك أن تدبر اثنين من عاملات الاختزال على الآلة الكاتبة ليظلا معنا لأننا مكلفون بترجمة مهمة » • تلقيت نصا روسيا مكتوبا على الآلة الكاتبة لترجمته ، وطلب منى « آكارمان » أن أرسل له أولا بأول كل صفحة بمجرد الانتهاء من ترجمتها • كان هذا النص هو مشروع قانون الاصلاح الزراعى •

ينص مشروع القرار على ضرورة الاستيلاء على كل أملاك الاقطاعيين الزائدة على مائة هكتار (الهكتار يساوى ثلاثة أرباع الفدان) بكل ما عليها من مبانى ، وما فيها من آلات وحيوانات ، ومصادرة كل أراضى مجرمى الحرب ، والمسئولين فى الحزب النازى ، وتضم أيضا الأراضى التابعة للدولة الى الاصلاح الزراعى ، اذا لم تكن تابعة لمعاهد الأبحاث الزراعية ، أو مراكز تعليمية ، أو حقول تجارب •

ولا يسرى قانون الاصلاح الزراعى على المساحات التابعة لادارة المدينة وتكون لازمة لتموين سكانها ولا على الأراضى التابعة للمجالس المحلية فى المقاطعات ، ولا على أراضى الجمعيات التعاونية ، والمدارس الزراعية ، كذلك لا يسرى على أراضى المؤسسات التابعة للكنيسة •

ويتولى تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى لجان محلية فى القرى ، يجرى انتخابها فى اجتماع عام للعمال الزراعيين ، والمعدمين والفقراء من الفلاحين • ويرأس لجنة المركز مدير الاقليم أو نائبه • ويبدأ تنفيذ القانون بعد اعلانه مباشرة ، وتنتهى اجراءات تنفيذه فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م •

---

(١) من المسلم به أن موافقة الفلاحين فى القرية الصغيرة الواقعة بين « كيريتس » وبين برلين لم يكن له تأثير اطلاقا على قانون الاصلاح الزراعى ، لأنه كان قد اتخذ فيه قرار مبدئى . اذ أن من طابع « الستالينية » أن يسمع رأى « الشعب » بطريقة أو بأخرى ، قبل تنفيذ الاجراءات التى تقرر تنفيذها قبل عملية سماع الآراء •

خطر ببالى وأنا أترجم مشروع القـانون أن التقديرات كانت « سليمة » نسبيا ، فحين علمت فى الأسبوع الأول من يونيو أن قانون الاصلاح الزراعى سينفذ فى عام ١٩٤٥ م بدأت أجمع كل المعلومات عن الاصلاح الزراعى فى بولندا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا .. الخ . وكتبت مقالات عديدة عن هذا الموضوع فى « جريدة الشعب الألمـانية » والناطقة بلسان الحزب الشيوعى الألمـانى ، فالحد الأقصى للملكية الزراعية فى بولندا ورومانيا خمسون هكتارا ، وفى بلغاريا ويوغسلافيا ٣٥ هكتارا ، فأوضح الفرق فى التحديد أننا لم نجبر على اتباع نموذج موسكو ، بل استطعنا أن ننهج سـياسة أسست طبقا لظروف البلد الخاصة . ولم يغير من رأيى هذا ، أن قانون الاصلاح الزراعى ترجم من اللغة الروسية ! فقد اقتنعت آنذاك — أما اليوم فلا ! — أن القانون من عمل رفقائنا الألمـانيين ، ثم أعطوه لسلطة الاحتلال لبحثه ، وهناك ترجم الى الروسية ، وأنا أعيد ترجمته الى الألمـانية .

رأيت النص الذى ترجمته مرة أخرى فى سبتمبر قانونـا تحت عنوان : قانون الاصلاح الزراعى فى مقاطعة « زاكسين » ، وتبع ذلك صدور قوانين مشابهة للمقاطعات الأخرى فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى . انعقد اجتماع آخر للجنة المركزية بعد أسبوعين من صدور قانون الاصلاح الزراعى ، ودعيت أيضا لحضور هذا الاجتماع . وكان الجهاز لا يزال آنذاك صغيرا ، فسار كل شىء سهلا دون تعقيد روتينى .

كان عدد المجتمعين فى صالة اجتماعات اللجنة المركزية يتراوح بين ٢٥ — ٢٦ قياديا ، جلسوا حول منضدة ، وضعت فى الوسط ، وجلس على رأسها « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » وحضر من « زاكسين — انهالت » « برنارد كونين » ومن « ميكلينبرج » « هيرمان ماتيرن » ولم يحضر من القياديين السابقين — الذين انضموا فى هذه الأثناء الى العاملين فى الادارة المركزية — سوى « ادفين هورنل » و « باول فانديل » .

كان الموضوع الرئيسى فى جدول الأعمال هو الاصلاح الزراعى . ألقى الواحد بعد الآخر تقارير عن الوضع فى المقاطعات المختلفة ، وكان الحديث مفتوحا آنذاك فى هذا الوسط ، فأمكن للمرء أن يأخذ صورة دون رتوش ، سواء أكانت عن تلك المناطق التى نفذ فيها الاصـلاح

الزراعى بنجاح ، أو عن الشوائب والأخطاء ، ونقاط الضعف التى ظهرت عند التنفيذ .

تحولت الجلسة بعد ساعتين الى حوار ، انتهى « برنارد كونين » من تقريره عن الاصلاح الزراعى ثم قال : « وأخيرا أود أن أبدى رجاء هاما يتعلق مباشرة بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، ففى شركة « لوينـــا »(١) تقرر ازالة آلات عنبرين لهما أهمية كبيرة فى تجهيز السماد ، وأحب أن أسأل عما اذا كان من الممكن استثناء هذين العنبرين من قرار الازالة » !

فقاطعه « أولبريخت » قائلا : « لا شأن لنا هنا بمســـألة فك المـــاكينات » .

ـ « ولكنى أود أن أشير هنا الى أهمية هذا الانتاج بالنسبة للاصلاح الزراعى ، وقد اتخذت كل الاحتياطات لمنع انتاج المواد الحربية ، ولو كانت غير مباشرة وتعهدت للعمال فى الاجتماعات .... » .

قاطعه « أولبريخت » بنغمة حادة : « لقد قلت : ان هذه المسألة ليست من اختصاصنا » .

ولكن لم ينثن « برنارد كونين » عن عزمه ، واستمر فى اصراره على بحث الموضوع قائلا :

« هذا لا يمكن ، يجب أن نصل هنا الى حل فى هذه المسألة ، لقد وعدت العمال بأن أبذل كل ما فى وسعى لابقاء كلا العنبرين اللذين ليس لهما علاقة بالانتاج الحربى ... » .

ولكن لم يتركه « أولبريخت » حتى ينتهى من كلامه ، اذ رفع صوته مهـــددا : « أنا لا أحب أن أسمع شيئا عن هذا الموضوع بعد الآن . سوف نتحدث فيه معا على مستوى آخر » .

فصمت « برنارد كونين » وكان للتهديد أثره ، فلم يسمع شىء عن عنبرى شركة « لوينـــا » بعد هذا اليوم .

استمرت الجلسة ، ولكن هذا الحوار حفر فى ذاكرتى قنوات . وكما حدث فى عام ١٩٤٢ م فى عملية النقد الذاتى ، وقرار طرد الرفيق « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وفى مايو سنة

---

(١) كانت احدى شركات الانتاج الحربى فى عهد «هتلر» ، فقررت سلطات الاحتلال فك ماكيناتها ، وتعطيل الشركة عن الانتاج . م شامة .

١٩٤٥ م عند لقاء « أولبريخت » بالشيوعيين فى برلين ، كنت هنا أيضا بجانب القيادى الذى شعر بأنه مرتبط بحياة العمال ، وليس فى جانب المسئول فى الجهاز الذى ينفذ فقط الأوامر التى تصدر من الجهات العليا •

كان موضوع الاصلاح الزراعى فى خريف عام ١٩٤٥ م هو العمل الرئيسى فى حقل نشاطنا ، فمنذ منتصف أغسطس والاجتماعات تعقد يوميا لمناقشة هذا الموضوع ، وبعد أن جهز قياديونا — أو كما كنا نسميهم « قوادنا » — بالتعليمات والارشادات ، عقدت فى كل القرى ، والكفور مؤتمرات للعمال الزراعيين وصغار الفلاحين ، وكان الشعار الأول هو : « أرض ذرية الاقطاعيين فى يد الفلاحين » واستخدمت كلمة « جوته » : « قف مع الشعب الحر على أرض حرة » فى حملة الدعاية للاصلاح الزراعى ، فانهالت علينا قرارات المؤتمرين التى تطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين •

بلغت موجة المؤتمرات ذروتها فى نهاية أغسطس ، ثم أعلن فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، فدخلت الاجراءات مرحلة جديدة ، اذ لم يعد الأمر يتعلق بالدعاية له ، بل بتنفيذ ما جاء فيه • انتهت مهمة قسم الدعاية السياسية عند هذا الحد ، فمسألة تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، هى فى المقام الأول من اختصاص قسم الزراعة ، وقسم التنظيمات فى الحزب •

ومن العجيب أن اجراءات توزيع الأراضى انتهت فى زمن قصير ، فقد أعلن « ادفين هورنل » فى ٥ سبتمبر باسم الادارة الألمانية لشئون الزراعة والغابات ، أنه قد تم توزيع أراضى كبار الملاك • وذات يوم — للأسف نسيت التاريخ — استدعانى « أولبريخت » : « سيعقد اجتماع فى « كارلسهورست » ، وسيشترك فيه رؤساء وزارات المقاطعات ، ورؤساء الادارات المركزية • وأرجوك أن تحضر هذا الاجتماع ، وتدون ملاحظات ، ثم تكتب لى تقريرا مفصلا ما أمكن ، وتعطيه لى فى المساء » • ثم أعطانى بطاقة شخصية ، وقدمنى لضابط الاتصال السوفييتى •

— « سنتحرك من هنا غدا فى الساعة التاسعة صباحا ، الى « كارلسهورست » •

وبعد أن تخطينا نقط رقابة متعددة ، واجتزنا حواجز ، قادنى ضابط سوفييتى الى قاعة الاجتماعات • وعندما دخلت القاعة كانت الجلسة قد بدأت • جلس على منصة الرئاسة المـارشال « شوكوف » وحوله خمسة أو ستة جنرالات روسيون ، كانوا — كما فهمت من المناقشة — المفوضين للسوفييت فى المقاطعات والمراكز • واشترك فى هذا الاجتماع عدد يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ شخصا ، من بينهم رئيس وزراء مقاطعة « زاكسين » السابق ، والدكتور « فريدريش » وألقى تقريرا مفعما بالخبرات والتجارب بهدوء ووضـوح ، ورئيس وزراء « تورينجن » السابق الدكتور « باول » الذى هرب الى الغرب فى عام ١٩٤٧ م ، وعمدة برلين السابق الدكتور « فيرنر » واشترك من رئاسة الادارات المركزية « باول فانديل » وكان مختصا بالتثقيف الشعبى ، و « ادفين هورنل » وكان مسئولا عن الزراعة •

وبعد دقائق قليلة من دخولى القاعـة قام رئيس وزراء احـدى المقاطعات ليلقى تقريره :

— « لا أحب أن أبدأ بالقاء تقريرى قبل التعبير عن الشكر للجيش السوفييتى الشجاع ••• » •

فقاطعه المـارشال « شوكوف » :

— « دع هذا من فضلك ، فلسنا هنا فى مؤتمر عام ، أرجوك ألا تخرج عن موضوع تقريرك ، حتى نستطيع أن نصفى هذه الأشياء » •

بلع رئيس الوزراء ريقه ، وانكمش • وكنت مندهشا أيضا ، فلم أشهد فى مجتمع قط مقاطعة انسان أراد مدح الجيش الأحمر • وسرعان ما تمالك رئيس الوزراء نفسه ، وتنازل عن الاستمرار فى المديح •

أنصت « شوكوف » وجنرالاته باهتمام ، وكان يلقى أسئلة بين الحين والآخر ، وغالبا ما كان يسأل هذا السؤال :

« هل تقترح شيئا معينا لازالة هذه العيوب » ؟

وبعد أن انتهى رؤساء الوزارات من القاء تقاريرهم ، طلب من رؤساء الادارات المركزية ابداء آرائهم •

— « سيكون من الافضل ، لو ناقشنا الاحتياجات التى عبر عنها رؤساء الوزارات فى بياناتهم » •

ومن الطبيعى أنهم تحدثوا بتفصيل مسهب عن الاصلاح الزراعى ، وهنا سأل « شوكوف » سؤالا سياسيا :

— « هل تستطيع أن تعرفنى بالتقريب ، كيف تكونت لجان تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، وأى الأحزاب أكثر نشاطا ، وأيها أقل نشاطا فى تأييد الاصلاح الزراعى » ؟

وكانت الاجابة كما توقعت :

« يمثل الشيوعيين أكبر عدد فى اللجان ، ثم يأتى بعدهم الديمقراطيين الاشتراكيون ثم المستقلون ، أما ممثلو حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فعددهم قليل • وفى كثير من المناطق لا يبدون أى حماس أو نشاط » •

خيم السكون لحظة ثم قال المارشال « شوكوف » مبتسما : « حسنا •• استمر » !

تحدث أحد رؤساء الادارات المركزية عن أن فى ادارته مجموعة من الموظفين ، لديهم خبرة واسعة فى تخصصاتهم ، ولكنهم يرتكبون أخطاء نتيجة الارتجال فى العمل •

فابتسم المارشال « شوكوف » ابتسامة سخرية ، ولكنها لم تكن ملاحظة سيئة النية على الموظفين البروسيين •

ثم أعلن عن المتحدث التالى ، وكان « فرديناند فريدينسبرج » رئيس الادارة المركزية لصناعة مواد الوقود ، فخطى الى المنصة بخطوات ثابتة ، ثم بدأ حديثه :

« على الرغم من أنى عضو فى ذلك الحزب الذى ذكر عنه قبل لحظات أنه لم يبد نشاطا فى الاصلاح الزراعى مثل الحزب الشيوعى ، وعلى الرغم من الملاحظة الساخرة على الموظفين البروسيين ، أحب أن أشير هنا بوصفى موظفا بروسيا سابقا •••• » •

فنظر المارشال « شوكوف » باندهاش •

قال الدكتور « فريدينسبرج » هذه الجملة بهدوء وواقعية • وعلى الرغم من أنى كنت متفقا تماما مع رأى المارشال « شوكوف » فى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى وفى الموظفين البروسيين ، فقد كنت معجبا بشجاعة الدكتور « فريدينسبرج » فقد أثر فى نفسى أكثر من أولئك الناس — وللأسف لم يكن عددهم قليلا — الذين لم يستطيعوا منع أنفسهم من نفاق رجال السلطة السوفييتية آنذاك ، بينما هم اليوم يعبرون عن الحقد والكراهية لهم •

ألقى الدكتور « فريدينسبرج » تقريرا وافيا عن وضع صناعة مواد الوقود ، وقال فى ختام تقريره :

« أحب أن ألفت نظر السيد المـارشال الى الصعوبات التى تعترض عملنا ، سيلحق الضرر انتاج صناعة مواد الوقود بسبب أن الحكمداريين لا ينفذون التعليمات الثابتة ؛ ويصدرون بدلها تعليمات أخرى » .

فسأله المـارشال « شوكوف » :

— « أى الحكمداريين ؟ هل تقصد حكمداريى المنطقة » ؟

— « لا .. أقصد العسكريين السوفييت المكلفين فى المصنع ، الذين يسمون أنفسهم حكمداريون ، ويتصرفون تصرف الحكمداريين » .

— « يا سيد « فريدينسبرج » .. سنعمل كل شىء لمنع معاكسة الموظفين السوفييت فى منطقة عملك ، حتى نضمن تطور صناعة مواد الوقود طبقا للخطة المرسـومة ؛ وسـوف أطلب معلومات كافية عن تصرف الحكمداريين فى المصنع » .

وعندما سمعت هذا ، فكرت فى هذا الوعد ، فأنا لا أشك فى نيته الصادقة ، غير أنى أعرف تكوين نظام الحكم السوفييتى معرفة تكفى لأن أعلم أن هناك ادارات لا تخضع لأوامر المـارشال « شوكوف » ، بل تخضع مباشرة للادارة الاقتصادية فى موسكو ، وعلمت أيضا عن تطاحن الادارات السوفييتية مع بعضها فى اصدار التعليمات وتنفيذها .

كنت قبل هذا ببضعة أيام فى سيارة ضابط سوفييتى من الادارة السياسية الرئيسية للجيش الأحمر ، وكنا نسير فى المنطقة السوفييتية فى برلين فقال لى : « هنا يسكن أعداؤنا » وأشار الى منازل فى مستعمرة جديدة .

— « من .. النازيون » ؟

— « لا .. أسوأ من هؤلاء ! قوات التطهير السوفييتية » .

* * *

الكراريس الثقافية

استدعانى « فرانس داليم » فى النصف الثانى من أكتوبر سنة ١٩٤٥ م :

— « أوضح لى « فريد أولسنر » أن قسم التثقيف الحزبى عندنا فى موقف حرج ، فقد عينوا رفيقا لتجهيز المـادة العلمية الأسبوعية ، ولكن

يبدو أنه لم يتقدم فى هذا العمل ، وينبغى أن تجهز الكراسة التالية فى ظرف ستة أيام • هل تستطيع — بصفة استثنائية — كتابتها » ؟

— « فى أى موضوع » ؟

— « عنوان الموضـــوع : فى الذكرى الثـــامنة والعشرين لثورة أكتوبر » •

— « حسنا •• سوف أجهزها » •

كتبت الكراســة التعليميــة المطلوبة ، دون ادراك لنتيجة هذه « المساعدة الخارجة عن دائرة عملى » ، وألقيت محاضرة ارشادية على القائمين بالتدريس فى أنظمة الحزب فى برلين •

وبعد أن انتهيت من كلا العملين على وجه مرض ، تقرر خط سير عملى فى الحزب مؤقتا : فقد تركت عملى — ابتداء من هذا اليوم — كنائب لرئيس قسم الصحافة فى اللجنة المركزية ، وعينت محررا مسئولا عن المواد الثقافية فى الحزب •

كانت قيادة العمل الثقافى كله فى الحزب فى يد « فريد أولسنر » الذى جاء الى برلين فى أوائل يونيو ١٩٤٥ م مع « فيلهيلم بيك » • كنت قد قابلت « فريد أولسنر » فى موسكو ، وكان معروفا بالاسم الحركى « لاريف » ، وكان رئيس هيئة تحرير الاذاعــة الألمــانية فى راديو موسكو • ودرس — مثل « آكارمان » — فى مدرسة « لينين » فى موسكو •

ظهرت سلسلة المحاضرات — التى عرفت فى دوائر الحزب باسم الكراسة التعليمية ابتداء من يونيو بدقة وفى مواعيد مضبوطة ، مدهشة بالنسبة للظروف فى ذلك الوقت ، فكانت تصل الى أيدى أنظمة الحزب فى المواعيد المحددة • وفرض على كل وحدات الحزب فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، عقد ندوات ثقفية فى مساء كل ثلاثاء لدراسة هذه الكراسة • وقبل أن ينعقد مؤتمر « بوتسدام » ، وقبل أن يدرك الحلفاء الغربيون ، ما ينبغى عمله فى ألمــانيا ، درس مئات الآلاف من أعضاء الحزب الشيوعى فى المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى مسائل سياسية معينة أسبوعيا أو — كما كان يقال آنذاك — وضعوا على الخط الصحيح •

كان الحديث مع « فريد أولسنر » عن عملى قصيرا :

— « يتلخص عملك فى تجهيز مسودة الكراسة الثقافية أسبوعيا فى الموعد المحدد » •

ـ « ومتى أعرف الموضوعات » ؟

ـ « سوف يتفق عليها فى اجتماع مشترك مع « آكارمان » وستحضر أيضا هذا الاجتماع ، وسيكون ذلك قبل البدء باصدار سلسلة الكراسات بعشرة أيـــام » •

فرض على أن أكتب أسبوعيا فى موضوع ثقافى جديد ، وكانت الموضوعات متنوعة ، فقد كتبت عن نشاط الحزب فى الريف ، والجمعيات التعاونية الاستهلاكية والسياسية والتموينية ، ومساواة المرأة ، واصلاح التعليم ، وبناء أجهزة الحزب ، والنضـــال ضد العسكرية الرجعية البروسية •

نظمت العمل بعد أسابيع قليلة ، اذ قيمت وفهرست كل الكتب والبحوث والمواد العلمية : والجرائد التى تصدر ، حسب الموضوعات ، التى يمكن أن يكتب ذات يوم عنها فى الكراسة الثقافية • وبنفس النظام والفهرسة فعلت أيضا بالنسبة للنصوص التى اقتبست من مؤلفـــات « ماركس » و « انجلز » و « لينين » و « ســـتالين » و « فيلهيلم ليبكنيشت » و « أوجست بيبيل » و « كارل ليبكنيشت » و « روزا لوكسمبرج » ويستفاد منها فى المسائل التى تعالج فى الكراسة الثقافية ، لدرجة أنى كنت أستطيع استخراج النص المطابق للموضوع الذى أكتب فيه من المراجع الكلاسيكية « للماركسية ـ اللينينية » •

وسرعان ما تعودت على هذا العمل ، حتى أن الكراســـة كانت تذهب الى المطبعة بعد تعديل بسيط جدا ، أو بدون تغيير اطلاقا • ولم يحدث اعتراض من الرقيب الا مرة واحدة ، ولم يكن بسبب تعبيرى الخاص ، بل كان يتعلق بنص استشهدت به من « ماركس » ، فقد كان الموضوع : مساواة المرأة • وبعد أن كتبت الرأى المعاصر ، حاولت البحث عند « ماركس » عن نص يدعمه ، فوجدت جملة فى خطاب أرسله « ماركس » الى « كوجيلمان » فى ديسمبر سنة ١٨٦٨ م :

« يقاس التقدم الاجتماعى بوضع الجنس اللطيف فى المجتمع ، واحتوائه مع الجنس القبيح » •

كنت جالسا فى اليوم التالى مع « أولسنر » بعد الانتهاء من اعداد الكراسة ، فقال وهو يقطب جبينه . « وقعها غريب على السمع » •

ـ « هذه من « كارل ماركس » ولا يمكن تغييرها » •

لم تأت هذه الحجة بنتيجة ، فقد تناول « أولسنر » القلم وشطب على جملة « واحتوائه مع الجنس القبيح » .

أصبح « أنتون آكارمان » بعد وقت قصير . هو الرقيب المسئول ، وهو ألطف رقيب قابلته حتى ذلك الحين ، ولما كان من المفروض أن تسلم الكراسة يوم الاثنين صباحا الى المطبعة ، فقد أصبح من العادات المألوفة أن أزور « آكارمان » فى « فيلته » فى « نيدرشونهاوزن » ، وأتناول معه طعام العشاء ثم يقرأ الكراسة ويصرح بالطبع موقعا عليها بالحرفين « أ . أ » .

ثم يأتى الى فى صباح الاثنين مندوب من دار نشر « ديتس » ويتناول المسودة فيضع عليها تأشيرات الطباعة أمامى ، ثم يكتب فى أعلاها على الجانب الأيسر ١٢٠٫٠٠٠ ، وهو العدد الذى كان يطبع آنذاك من الكراسة الثقافية .

وبجانب الكراسة الثقافية فى مساء الثلاثاء ، فقد فتحت أيضا فى خريف عام ١٩٤٥ م مدارس الحزب الريفية الأولى فى « ميكلينبرج » و « براندينبرج » و « زاكسين ــ أنهالت » و « زاكسين » و « تورينجين » و « برلين » وكان معظمها فى قصور الاقطاعيين السابقين .

تثقف عدد يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دارسا فى هذه المدارس الليلية فى دورة دراسية كانت تستغرق أسبوعا . فلو زرت فى تلك الأيام « أنتون آكارمان » فى مكتبه لرأيته منحنيا على خريطة للمنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وقد صلب بالخط الأحمر على أماكن عدة فيها . فقد كان الأمر يتعلق بالبحث عن مبانى مناسبة لمعاهد الحزب العليا المركزية ، التى وضعت خطة انشائها . وطلب من كل أنظمة الحزب فى المقاطعات أن يبلغوا اللجنة المركزية عن القصور أو المبانى التى تتناسب مع هذا الهدف . وأخيرا عثرنا فى « ليبينفالدى » ــ وهى تبعد حوالى ٣٥ كيلومترا شمال شرق برلين ــ على مبنى مناسب ، وأمكننا ــ فعلا فى نهاية عام ١٩٤٥ ــ بدء العمل أيضا فى معهد الحزب العالى .

كذلك أنشأت الادارة العسكرية السوفييتية ــ بالاضافة الى مدارسنا ــ مدرسة سياسية كبيرة فى « كونيجسفوسترهاوزين » وكان مدرسوها ، ورواد قاعات البحث فيها من الضباط السوفييت ، وعينت معهم مدرسة هى « لينى بيرنر » التى كنت معها فى عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . لم تنضم هذه المدرسة رسميا

الى الحزب ، وكان من بين تلاميذها كثير من القياديين الشبان فى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى • وكانت رغبة القيادة السوفييتية — على ما يبدو — تكوين قاعدة ثابتة لسياسة التحالف ، ولكن فى نفس الوقت محاولة التأثير على قياديى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى بطريقة غير مباشرة ، وتحويلهم الى الاتجاه المطلوب •

كانت مقررات الندوات الثقافية الأسبوعية المسائية مختلفة عن مقررات مدارس الحزب المطبق فيها نظام المدارس الداخلية ، غير أنه كانت هناك وحدة بينهما : فقد اهتمت الندوات المسائية السياسية ، بتحويل الثقافة السياسية عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى القدامى الذين رجعوا الى حزبهم بعد عام ١٩٤٥ م ، وتوجيههم الى « الخط الجديد » ، وتهيئتهم للقيام بواجباتهم الجديدة ، كما هيأت قوى الشباب الجديدة التى تدفقت على الحزب الشيوعى سياسيا ، وغرست فى أفكارهم مبادىء الحزب ، وكانت مهمة مدارس الحزب — المطبق فيها نظام المدارس الداخلية ، وكان عدد الدارسين فيها يزداد باستمرار — اعداد القياديين الجدد فكريا وسياسيا •

* * *

رأى « آكارمان » المنقذ

عندما كنت فى مساء أحد أيام الآحاد عند « أنتون آكارمان » فى « نيدرشونهاوزن » لاحظت أنه يسرح أثناء قراءة الكراسة الثقافية ، وظهر عليه التوتر العصبى من شدة الفرح ، كان فكره فى ناحية أخرى ، وبعد أن انتهى من قراءة المسودة ، وأعطى الاذن بالطبع ، بدأ يتحدث عما استولى على مشاعره آنذاك — وليس فقط آنذاك — كلية •

نحن على أبواب تشكيل جديد هام « لمبادئنا الرئيسية » ، ثم تحدث عن الوضع الجديد بعد الحرب العالمية الثانية ، وعن امكانية انتهاج طريق جديد الى الاشتراكية ، وعن البحث عن طرق خاصة الى الاشتراكية على أساس الارتباطات الجديدة ، مختلفة عما كان فى روسيا بعد ثورة أكتوبر • كان « آكارمان » قد كتب فى فبراير سنة ١٩٤٥ حديثا لاذاعة « ألمانيا الحرة » فى موسكو تحت عنوان : « ثمانى دول — مذهب واحد » ، ونشر فيما بعد أيضا فى جريدة اللجنة الوطنية ، ومما جاء فيه :

« البلشفية نظام سياسى داخلى للاتحاد السوفييتى ، ويمكن أن تختلف الآراء حول هذا النظام الاجتماعى » •

ثم بالنسبة للنظرة الى دول شرق وجنوب شرق أوروبا :

« فالتطور فى تفصيلاته متفاوت جدا فى الدول المختلفة ، ويشير هذا بالذات الى ضرورة عدم تأثير سلطة دولة أجنبية فى تحديد الاتجاه » •

والآن •• فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، يحاول « آكارمان » تهذيب اشارته السابقة الى المبدأ الرئيسى للحزب ، حول امكانية اتخاذ طريق ألمانى خاص الى الاشتراكية ••

قرأ على مسودة مقال مكتوبة بخط اليد ، كان قد انتهى من كتابة نصفه فى هذا المساء •

كانت نقطة انطلاق « آكارمان » أن « كارل ماركس » حصر قيام فترة الانتقال الثورية الى الاشتراكية فى دول القارة ، أما فى انجلترا وفى أمريكا ، فكان يرى أن المرحلة الانتقالية الى الاشتراكية مرحلة سلمية ، لأن أسلوب الحكم الديمقراطى الوطنى فى هاتين الدولتين لا تسيطر عليه عسكرية متطرفة ، ولا « بيروقراطية » كبيرة • فخرج « آكارمان » من هذا بنتيجة ، هى أن من الخطأ انكار امكانية المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية « تحت كل الظروف ، وفى كل الدول ، وفى كل العصور » :

« اذن •• فهذه المرحلة الانتقالية ممكنة بالطريق السلمى نسبيا ، لو لم تتصرف الطبقة « البورجوازية » تحت ظروف خاصة فى سلطة الدولة العسكرية والبيروقراطية ••• » •

كانت هذه الأفكار جديدة على مفاهيم أعضاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمانى • ولم يكن النص الذى استشهد به من « ماركس » و « انجلز » حتى ذلك الحين معروفا فى الاتحاد السوفييتى ، ولا عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى القدامى ، فلم يظهر فى المحاورات السياسية ، ولا فى الدراسات النظرية ، حتى لم نتحدث نحن عنه فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م ثم بين « آكارمان » أن ظروف ألمانيا بعد عام ١٩٤٥ مهيأة لمثل هذا التطور السلمى :

« •• فلو تحولت الدولة الديمقراطية الجديدة الى أداة سيطرة جديدة فى يد القوى الرجعية ، لأصبحت المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية غير ممكنة ، ولكن اذا تحولت الجمهورية الديمقراطية

المناهضة للفاشـــية ، الى دولة كل العاملين تحت قيادة الطبقة العاملة ، فيكون الطريق السلمى الى الاشتراكية ممكنا مائة فى المائة .. لا أحد بتمنى أكثر منا فى أن يتفادى النضال الجديد اراقة دماء جديدة » .

وتحدث فى آخر جزء من مقاله عما كنت أفكر فيه منذ زمن بعيد ، ولكن لم يسمح لى بالتعبير عنه صراحة وهو : أن من الضرورى أن نسلك طريقا مستقلا الى الاشتراكية يختلف عن طريق روسيا ، فقد قرأ « آكارمان » وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

« لم يشدد أحد غير « لينين » على أن من الخطأ الفاحش المبالغة فى حقيقة عمومية شرعية التجربة الروسية ، وبسطها « بأكثر من المبادىء الأساسية لثورتنا (يقصد الثورة الروسية) .. وطبقا لهذا المفهوم يجب أن نوافق على اتخاذ طريق ألمـــانى مستقل الى الاشتراكية » .

أشـــار « آكارمان » — وان كان ذلك بأسلوب حذر نسبيا — الى تباين التطور الاشتراكى فى ألمـــانيا عنه فى روسيا ، « فروسيا كانت فى عام ١٩١٧ م متخلفة جدا عن الدول المتقدمة ، وكان انتاج العمال منخفضا نسبيا ، وتطور الصناعة ضعيفا ، وعدد القوى العاملة ضئيلا . ولكن على العكس من ذلك فى ألمـــانيا ، اذ يمكن أن يصل الانتاج فى ألمـــانيا الى مستوى عال بسرعة ، ويوجد عدد كبير من القوى العاملة المؤهلة ، ولا وجه لمقارنته بما كان عند روسيا فى عام ١٩١٧ م .

ويمكن أن يكون لهذا التباين أثره ، فما سقط من ضحايا فى روسيا فى طريق بناء الاشتراكية ، لن يقع عندنا الا بنسبة ضئيلة جدا نسبيا ، وسوف يرتفع مستوى المعيشة الاشتراكية تحت ظروف خاصة بسرعة عندنا » .

« وتختلف ألمـــانيا عن روسيا فى عام ١٩١٧ م فى أن الطبقة العمالية فى ألمـــانيا تمثل أكثرية مجموع السكان .

« وسوف يكون لهذا أهمية كبيرة بعد انتصار الطبقة العاملة فى ألمـــانيا ، لأنه يسهل النضال السياسى الداخلى ، ويقلل من عدد الضحايا ، ويعجل بالديمقراطية الاشتراكية » .

تناقشت كثيرا مع « آكارمان » حول موضوعات سياسية ، ولكن لم أشعر قط أن الأفكار والآراء التى عبر عنهـــا فى هذا المقال تختلط بمشاعره كانت هذه هى نفس حالتى ، فالأفكار التى كتبها الآن « آكارمان » كانت تدور بذهنى منذ وقت طويل . لقد كانت أمنيتى منذ زمن بعيد

أن البلاد الأخرى ينبغى أن تسلك طريقا الى الاشتراكية غير طريق الاتحاد السوفييتى • والآن التزم « آكارمان » بأن يكتب ذلك فى مقال ينشر فى مجلة رسمية تنطق بلسان الحزب وهى « الوحدة » ، وينبغى أن يكون ذلك هو الخط الرئيسى للحزب !

دفعنا التغيير الرسمى لخط الحزب فى هذه المسألة الهامة الى أن نرى أشياء كثيرة بصورة مختلفة تماما عن التى رأيناها بها قبل التغيير : فاعتداء الجيش الأحمر على النساء عند الاحتلال ، وفك آلات المصانع ، والرقابة السياسية بواسطة الضباط السوفييت — كل هذا كان بالنسبة لنا مظاهر وقتية لفترة انتقالية تستمر أعواما غير محددة • فهى بلا شك تصيبنا بأضرار ولكننا سوف نتغلب عليها فيما بعد • ثم ! — هكذا كان أملى واعتقادى آنذاك — سيأتى اليوم الذى ستنسحب فيه سلطة الاحتلال ، وعندها يستطيع الاشتراكيون الألمانيون أن يشقوا طريقهم الى الاشتراكية دون وصاية أجنبية ، طبقا لتقاليدهم وظروفهم الخاصة •

رجعت الى سكنى فى « بانكوف » فى الساعة الرابعة صباحا وأنا مفعم بهذه الآمال الجديدة • أخيرا — هكذا بدا لى — سيتحقق ما كنت أريده دائما : طريق مستقل الى الاشتراكية ، دون المظاهر التى آلمتنى فى معظم الأحيان فى الاتحاد السوفييتى •

وبعد أسابيع قليلة — فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ — ظهر مقال لـ« آكارمان » تحت عنوان : هل يوجد طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ؟

كان للمقال دوى القنابل ، فقد قوبل — باستثناء عدد ضئيل من القياديين المخلصين لموسكو ، الذين يعارضون كل فكر جديد — بارتياح عام من الرفقاء ، والآن — هكذا بدا لى — أخيرا وجد طريق • لم نتبرأ علنا من اجراءات سلطات الاحتلال السوفييتية ، ولكن ظهر شىء آخر كان أهم وأعمق : انفصال مبدئى عن التطور فى الاتحاد السوفييتى • وبدأ رأى « آكارمان » يكتسب أصواتا بين مستويات الحزب المختلفة •

* * *

بدء حملة الوحدة

تعبت نظرية الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية دورا هاما — وخاصة عند القياديين — فى حملة الدعاية للوحدة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، فقد رغب فى عام ١٩٤٥ م كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين — تحت تأثير التجارب المريرة مع الديكتاتورية الفاشية — فى التغلب على الانقسام فى الحركة العمالية ، بتأليف حزب اشتراكى يكون أحسن من الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى اللذين كانا فى عهد الجمهورية الفايمرية • التحمت نظرية « الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية » بهذه الفكرة ، وفهمتها الزعامة السوفييتية آنذاك على أنها أسلوب جديد لتبديد مخاوف الديمقراطيين الاشتراكيين (ولم تكن مخاوف الشيوعيين أقل) الذين كانوا يخشون الارتباط الأساسى بموسكو •

رفض « أولبريخت » بعد تأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى مباشرة كل الاقتراحات التى تطالب بتكوين حزب اشتراكى موحد ، بحجة أنه يجب أن يقوم اتحاد تنظيمى قبل ذلك ، بتوضيح المسائل الأيديولوجية • ثم يحين بعد ذلك دور كلا الحزبين فى تكوين جهازهما التنظيمى • ومما لا شك فيه أن حالتنا فى الحزب الشيوعى كانت أحسن ، فقد أسسنا منظماتنا فى المدن والقرى قبل الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، وامكانياتنا كانت أكبر ، وعدد توزيع جريدتنا أعلى ، وعندنا — وكان ذلك شيئا هاما جدا آنذاك بالنسبة لتأسيس المنظمات — سيارات كثيرة ، نستطيع بها أن نتصل بالوحدات المحلية بطريقة أسرع •

لم تقتصر الحماية السوفييتية على تقديم المساعدات الفنية بكميات كبيرة ، بل كان الحزب الشيوعى مفضلا أيضا سياسيا عند سلطة الاحتلال • ومن ناحية أخرى فقد تدخلت الادارة السوفييتية أيضا تدخلا مباشرا فى الشئون الداخلية للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، كى تخمد عن طريق الضغط السياسى والاجراءات المخوفة كل أصوات المعارضة المستقلة •

كانت العلاقات مع الحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى لم يزل فى فترة التكوين متباينة ، فعلى المستوى المركزى تكون مجلس عمل مشترك

فى يونيو سنة ١٩٤٥ أى بعد اعادة تأسيس الحزبين مباشرة كما تكونت مجالس مماثلة أيضا فى بعض القرى •

وكانت العلاقات فى بعض القرى والمراكز والمقاطعات علاقة زمالة ، أو علاقة صداقة ، ووجد فى بعضها الآخر توتر بين أعضاء الحزبين ، وأحيانا جو عدائى ، لأن الديمقراطيين الاشتراكيين لاحظوا فى حالات لا حصر لها انحياز سلطات الاحتلال السوفييتى الى جانب الحزب الشيوعى •

ورغم هذا فقد ظهر أن الحزب الديمقراطى الاشتراكى تطور بأسرع مما توقعته زعامة الحزب الشيوعى الألمانى فى يونيو سنة ١٩٤٥ م • استمرت مسافة تقدم الحزب الشيوعى فى نقص مستمر ، ففى الجهات التى كان يوجد فيها الحزب الديمقراطى الاشتراكى كان يتحول اليه باستمرار أعداد كبيرة من أعضاء الحزب الشيوعى •

كان من المفروض فى ٧ نوفمبر — ذكرى ثورة نوفمبر — أن يقام احتفال مركزى مشترك من الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، غير أن اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى رفضت اقامة حفل مشترك ، وأجلت احتفالها بهذه المناسبة الى ١١ نوفمبر • أرسلوا الينا بعض تذاكر دعوة ، فدعانى « فيلهيلم بيك » :

— « سنذهب سويا الى احتفال الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فسوف يتحدث « جروتيفول » •

حيانا قياديو الحزب الديمقراطى الاشتراكى بحرارة ، ثم قادونا — أنا و « فيلهيلم بيك » — الى « لوج » كان محجوزا للضيوف •

بدأ « جروتيفول » يتحدث ، فلاحظت بعد دقائق قليلة أن هذه الخطبة لا تلتزم « الخط » اطلاقا ، اذ بدلا من أن يتحدث عن « التنظيم الديمقراطى المناهض للفاشية » الذى رسمنا خطوط الدعاية له ، تحدث كثيرا وبالتفصيل عن الاشتراكية ، تلك الطريقة التى كنا نتجنبها آنذاك ، بل نكافحها ، لأنها — طبقا لمفهومنا — لا تتفق مع مرحلة التطور الحالية ، ولأنها يمكن أن تضر وحدة كل القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية وتسىء الى مفهوم الاشتراكية • وكانت مطالب « جروتيفول » الاقتصادية أكثر اثارة للارتياب عندنا : فهو وان لم يتحدث مباشرة ضد آلات المصانع ، والتعويضات ، الا أنه عالج هذه المسائل بطريقة مكنت

كل الحاضرين من أن يفهموا بوضوح لمغزى الحقيقى لكلماته • فبان التغير على وجه « فيلهيلم بيك » •

وأخيرا وصف « جروتيفول » التزامات الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى السياسة الداخلية ، بأنها موقف وسط بين الحزب الوطنى والحزب الشيوعى ، وفى السياسة الخارجية يلعب الحزب دور الوسيط بين الاتحاد السوفييتى والديمقراطية الوطنية الغربية • ولم يذكر « جروتيفول » فى خطبته شيئا عن ضرورة تقوية العمل المشترك مع الحزب الشيوعى الألمانى أو عن التطور نحو وحدة كلا الحزبين •

وعندما انتهى « جروتيفول » من خطابه ، صفقنا مع المصفقين بضعة ضربات بالكف تأدبا • ثم قال لى « فيلهيلم بيك » بصوت منخفض : « هيا بنا » • كان متأثرا جدا •

كنت قد توقعت أن زعماء الحزب الديمقراطى الاشتراكى سيدعوننا بعد الانتهاء من الاحتفال للجلوس معهم بعضا من الوقت ، ولكن ذلك أصبح غير ممكن بعد هذه الخطبة •

وبعد دقائق قليلة كنا فى العربة متوجهين الى « بانكوف » ولم يزل « فيلهيلم بيك » صامتا ، ثم قطع الصمت قائلا :

— « لم أتوقع هذا ! كيف يكون الوضع مع « جروتيفول » بعد الآن » ؟

— « لقد تحدث « جروتيفول » اليوم بوضوح وعلى رؤوس الأشهاد ضد الوحدة » •

وفى اليوم التالى كانت خطبة « جروتيفول » موضوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية ، وأشيع أن هذه الخطبة ليست من تأليفه بل كتبها له « كلينجينهوفر » •

لم تنشر خطبة « جروتيفول » فى أى جريدة من جرائد المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولم تنشر أيضا فى مجموعة خطبه التى نشرت فى عام ١٩٤٨ م ، ولا فى مؤلفاته التى جمعت ونشرت فيما بعد فى مجلدات عدة •

أعلن فى نهاية نوفمبر ١٩٤٥ نتيجة الانتخابات البرلمانية الأولى بعد الحرب فى النمسا ، فكانت فاجعة للحزب الشيوعى النمساوى : اذ فاز الحزب الوطنى بـ ٨٥ مقعدا ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى بـ ٧٦ مقعدا ، والحزب الشيوعى بـ ٤ مقاعد فقط •

وصل الينا تقرير من النمسا قبل اعلان النتيجة ، يفيد بأن الرفقاء النمساويون يتوقعون أنهم سيحصلون على عدد من الأصوات يساوى ما سيحصل عليه الديمقراطيون الاشتراكيون •

كانت الانتخابات النمساوية ونتائجها موضوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية :

« لقد ارتكب الرفقاء النمساويون خطأين كبيرين ، ويجب أن نتعلم منهما ، وكان أهمهما مساعدة الديمقراطيين الاشتراكيين •••• » •

بدأت حملة الدعاية للوحدة من هذا اليوم ، ولم يوجد سوى موضوع واحد : الوحدة • فقد وضعت مسألة الوحدة على رأس القائمة فى كل الاجتماعات والمحاورات ، وكان هذا ضروريا ، لأنه ظهرت فى الأسابيع الأولى مخاوف لدى عدد كبير من أعضاء الحزب الشيوعى من الوحدة مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وتكوين حزب موحد •

وكان من واجبنا فى قسم الثقافة تحويل أعضاءنا تحويلا نهائيا الى « الخط » • وفوجىء كثير من أعضاء الحزب بتوزيع مئات الآلاف من نسخ برامج الحزب الديمقراطى الاشتراكى القديمة — برنامج « أيزيناخر » ١٨٦٩ م ؛ وبرنامج « جوتر » ١٨٧٥ م ، وبرنامج « ارفورتر » ١٨٩٠ م — على الأعضاء ؛ ووجدنا أنفسنا فى قسم الثقافة والتعليم فجأة مشغولين بمشكلة غريبة ، ألا وهى جمع نصوص من مؤلفات : « أوجست بيبيل » و « فيلهيلم ليبكنيشت » ، وأحيانا اذا أمكن من مؤلفات « كاوتسكى » و « هيلفردينج » لتستخدم فى حملة الدعاية للوحدة • ثم تلقينا بعد ذلك اشارة بامتيازات أكبر للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فبينما كنا ننسب حتى الآن هزيمة الحركة العمالية فى الجمهورية الفايمرية الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ولكنا كنا نعترف ببعض الأخطاء « التكتيكية » للحزب الشيوعى (فى الاستفتاء الشعبى فى عام ١٩٣١ م فى تقدير المسائل الوطنية ، وفى تشكيل الموقف فى مواجهة الحزب الديمقراطى الاشتراكى) ، أصبحت الأخطاء الهامة الآن تنسب الى كلا الحزبين •

فقد كانت الهزيمة ممكنة — هذا هو التفسير الحالى — لأنه لم توجد حركة عمالية موحدة(١) •

---

(١) غير أن هذا التفسير سحب فى عام ١٩٤٨ م •

تعود أعضاء الحزب الشيوعى على الوضع الجديد نسبيا ، فلم توجد صعوبات لدى الشبان فى هذا التحويل ، لأن أفكارهم نبتت فى الوحدة .

انعقد اجتماع مشترك بين زعماء الحزبين فى ٢٠ — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وأطلق عليه « مؤتمر الستين » وتوصل المجتمعون الى قرار رسمى .. جاء فيه :

« سيكون الحزب الموحد حزبا اشتراكيا ألمانيا مستقلا ، ويمثل مصالح العاملين فى المدينة والقرية ، تبعا للظروف المتاحة فى ألمانيا » .

« ويتكون الحزب الموحد على أسس ديمقراطية ، ومن حق الأعضاء الحرية فى ابداء الرأى ، وحرية انتخاب كل الممثلين .. » .

« ويريد الحزب الموحد جمهورية ديمقراطية برلمانية ، وهدفه تحقيق الاشتراكية فى ديمقراطية اشتراكية ، وسيهيىء التفاهم الأخوى والعمل المشترك طريق الوحدة فكريا » .

وافق الديمقراطيون الاشتراكيون آنذاك فقط تحت شرط أن مسألة الوحدة ستتقرر فى مؤتمر عام لأعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى الامبراطورية .

بعث تكوين حزب اشتراكى ألمانى مستقل ، والتأكيد على حرية التعبير لكل أعضاء الحزب أملا جديدا عند أعضاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمانى المستقلين فى تفكيرهم ، فتردد آنذاك : « ستكون بعض النواحى فى الحزب الجديد مغايرة تماما لما هى عليه حتى الآن فى الحزب الشيوعى الألمانى » . وبعد أسبوعين — فى يناير سنة ١٩٤٦ م — بلغ « فيلهيلم بيك » السبعين من عمره ، فزين قصر الأدميرال (Admirals - Palast) — الذى كان يحتاج الى ترميم عاجل — فى شارع « فريدريش » وضع على المنصة أربعة أو خمسة صفوف من الكراسى ، وحضر كل الذين لعبوا دورا فى الحياة السياسية آنذاك . قابلت فى طريقى الى الصالة « ايللى فينسر » بنت « فيلهيلم بيك » فهمست فى أذنى :

« سيصبح « فيلهيلم » ، اليوم المواطن الأول لمدينة برلين » .

قدمت التهانى المختلفة واحدة بعد الأخرى ، فكان اذا تحدث الرفقاء الكبار ، الذين عرفوا « فيلهيلم بيك » من عصر النضال يبدو عليه الانتعاش ، وما عدا ذلك ، فقد لاحظت أن كل شىء لم يحز رضاء كبيرا

لديـــه • تحدث عمدة برلين الدكتور « فيرنر » ، فعبر عن تهنئته بكلمات عامة ، ثم قدم اليه شهادة المواطن الأول • ثم أعلن مقدم الخطباء اسم « أوتو جروتيفول » بوصفه مهنئا باسم اللجنة المركزية لحزب الديمقراطى الاشتراكى • لم يكن قد مضى شهرين على خطبته التى ألقاها فى ١١ نوفمبر ولكن تغير الكثير منذ ذلك التاريخ ! ختم « جروتيفول » تهنئته بهذه الكلمات :

« •• اذا لم يكن لدينا أيضا شهادة مواطن أول نقدمها ، فان لدينا فى هذا المقـــام تصافيا ، نقدمه نابعا من القلب اليك يا عزيزى « فيلهيلم بيك » ، •• نقدم يدا ، لا ينحصر مغزاها فى هذا اليوم فحسب ، بل يدا تستمر ممدودة مدة طويلة ، بحيث لا تنفصل الأيدى بعد اليوم •• » •

التقطت بعض الصور لتنشر فى كل الجرائد والمجلات ، ثم أقيم حفل فى قصر « هوهينشونهاوزين » على شرف « فيلهيلم بيـــك » • استمر القـــاء خطب التهنئة فيه ساعتين ، ثم انتهى الجزء الرسمى ، وبدأت الفرقة تعزف ألحان الرقص ، فتحول هذا المجتمع المتزمت الى التحلق فى مجموعات • ولم تتح تلك الفرصة النادرة ، التحدث مع كل زعماء الحزب الشيوعى فقط ، بل أيضا مع كبار الموظفين السوفييت ، وكان عدد كبير منهم حاضرا فى هذا الحفل • فانتهز هذه الفرصة كثير من السياسيين ، وخاصة من أعضاء حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فى المنطقـــة الألمـــانية الواقعـــة تحت الاحتلال السوفييتى •

قيل لى :

« من فضلك •• اذهب الى المسئول السياسى فى حكمدارية برلين • لأنه يتحدث مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى « كولتس » ويريد مترجما » ! كنا نجلس على مائدة جانبية ، بدأت فى أول الحديث أترجم كلمة كلمة ، ثم تيقظ عندى جانب الاهتمام بالسياســـة • بدا لى أن حكمدار برلين لم يكن مؤدبا بصورة كافية مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى ، وكان يعبر أحيانا أيضا تعبيرات سياسية غير مناسبة ، فبدأت أصيغ جمله صياغة أكثر تأدبا ، ثم أضفت اليها فيما بعد بعض الجمل الفرعية ، تعبيرا عن أفكار من عندى • وتوقعت أن « كولتس » سيسر بهذه التعبيرات الجميلة ، وطريقة الاجابة السريعة من الموظف السوفييتى الكبير ، ولكن نظرته كانت تزداد صرامة وعنفا •

وعندما وقف الحكمدار ليطلب مشروبات ، همس « كولتس » فى أذنى : « أشكرك على محاولتك صياغة كلام الحكمدار بأسلوب مؤدب ، وكذلك التأكيد على جبهة الوحدة ، ولكنى احب أن أشير لك الى أننى أفهم شيئا من اللغة الروسية ، ومن الأفضل عندى فى هذه الحالة أن أسمع رأى الحكمدار حرفيا » .

كلفت بمهمة خاصة بعد يوم عيد ميلاد « فيلهيلم بيـــك » بوقت قصير :

ـــ « يجب أن تصدر كراسة ثقافية خاصة عن مؤتمر وفود النقابات المقرر عقده فى فبراير سنة ١٩٤٦ م » .

اندهشت ، لأنى لم أكن أتوقع حتى هذه اللحظة الأمر باصدار كراسة عن مؤتمر « رابطة النقابات العمالية الألمـــانية الحرة » ولم أفهم فى بادىء الأمر ، لمـــاذا يهتم بهذه الأشياء فجأة !

ازدادت دهشتى بعد أيام قليلة ، حتى نحن العاملين فى اللجنـــة المركزية ، نزلت الينا التعليمات ، أين ، ومتى يجب أن نسهم فى انتخابات النقابة ، وقيل لنـــا :

« هذه الانتخابات أهم وأصـــعب معركة انتخابيـــة حتى الآن ، فكل صوت له وزنه » .

حول بعضنا بسرعة ـــ وأنا من بينهم ـــ أسماءهم الى كشوف نقابات أخرى لنستطيع الادلاء بأصواتنا هناك .

اهتم الكل بأعصاب مشدودة بانتخابات النقابات !

دعانى « فالديمار شميت » لحضور اجتماع قادة الحزب الشيوعى فى برلين :

« تعال معنا اليوم وغدا ! فنحن ننظم سياسة العمل الآن » . وفى حجرة صغيرة جلس القياديون الكبار فى أنظمة برلين ، ومعهم بعض المتخصصين فى شئون النقابات فى اللجنة المركزية ، وجلس « أولبريخت » فى وسط الحجرة .

وأقيم فى حجرة جانبية خدمات تليفونية وعين فى كل حى بعض القياديين ليكونوا على أهبة الاستعداد للاتصال بقيادة الأحياء فى برلين وصدرت اليهم التعليمات بأن يبلغوا بسرعة عن كل ما يحدث فى الحى . فتوالت التقارير دون انقطاع عن التيارات والوضع فى المصانع والمؤسسات العماليـــة . كان « أولبريخت » مشحونا طاقة ، فدار العمل كما لو كانت معركة حربية .

ـ « بلغ حـالا ـ الى الكل .. انتخب الشيوعيين فقط ! فقط الشيوعيين ، فالآن سيحسم كل شيء » !

وبعد دقائق قليلة خرج أحد القياديين من الحجرة الجانبية :

« لا يريد الرفقاء تنفيذ هذا الأمر ، فهم يقولون ، انهم اتفقوا مع الديمقراطيين الاشتراكيين على تكوين قيادات النقابات بنسب متساوية . ولهذا يريدون اعطاء أصواتهم أيضا للديمقراطيين الاشتراكيين » .

ـ « لا يمكن هذا الآن اطلاقا ، يجب انتخاب الشيوعيين فقط » .

بلغ الرفيق هذه التعليمات ، ثم عاد مرة أخرى بعد ربع ساعة :

« الرفقاء غير راضين ، فهم يقولون : اذا لم نحافظ على اتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، فسنحطم الوحدة » .

فأجابه « أولبريخت » :

« ستكون الوحدة أكثر صلابة ، على قدر كثرة الشيوعيين فى قيادة « رابطة نقابات العمـال الحرة » .

كانت تعليمات الحزب أقوى من رغبة وشعور العمال ، الذين كانوا على استعداد للعمل المشترك الشريف فى كل أنحاء برلين ، فحصل الحزب الشيوعى على الأغلبية فى انتخابات « رابطة نقابات العمـال الحرة » . فسر « أولبريخت » من ذلك ، ولكن العمال فى أحياء برلين كانوا غاضبين .

« لن يغفر لنا الديمقراطيون الاشتراكيون هذا أبدا ، فلم يغب عنهم أننا أعطينا أصواتنا للشيوعيين فقط ، وقد أفسدنا بهذا الانتخاب ثمار شهور عديدة من العمل المشترك » .

ولكن عندمـا « تكونت » قيادة النقابات فى برلين قـدم الى الديمقراطيين الاشتراكيين باسم الحزب الشيوعى فرصـة المشاركة المتساوية بسخاء .

قال لى قيادى فى أحد الأحياء :

« مادام قد رسم ذلك ، فكان لزاما علينـا أن نلتزم باتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكنا قد توصلنا الى نفس النتيجة ، دون أن تهدم الثقة بين أعضاء الحزبين فى المصانع » .

لم يفكر « أولبريخت » فى هذا ، وناور فى كل شيء ليتظاهر بقوة الحزب الشيوعى فى النقابات ثم بعرض المساواة ، كى يكسب القياديين الكبار فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى .

وبعد ذلك بأيام قليلة — فى ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ — حضرت مؤتمرا كبيرا لوفود النقابات العمالية من جميع أنحاء المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، غير أن المسائل النقابية لم تبحث فى هذا المؤتمر ، بل كان الهدف هو الوحدة ، فتقررت مسألة الوحدة فى هذا المؤتمر ، وأكثر من هذا ، فقد نجحت أغلبية اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى فى ١١ فبراير فى اتخاذ قرار يقضى باستفتاء أعضاء الحزب فى وحدة كلا الحزبين • وتقرر عقد مؤتمر حزبى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وبهذا تنازلوا عن فكرة عقد مؤتمر حزبى لجميع أنحاء ألمانيا •

قال لى « فالديمار » فى اليوم التالى مفتخرا :

« كل شىء واضح الآن يا « فولف جانج » ، فستتم الوحدة فى ٢٢ ابريل مساء » •

فقلت له : « هكذا وصلتك الأنباء بهذه الدقة » •

— « نعم •• كان عندنا منذ لحظات اجتماع مع الأصدقاء السوفييت ، وحددنا فيه كل شىء فقد أتاح « مؤتمر رابطة النقابات العمالية الحرة » الفرصة لنا لتحديد ذلك » •

— « والديمقراطيون الاشتراكيون » ؟

— « سوف نتغلب على هذه المسألة » •

شعرت بعدم الارتياح : اذ لم أرد الوحدة بهذا الأسلوب — هل كان صوابا حقا ، أن يتقرر فى اجتماع صغير فى منتصف فبراير تحديد اليوم والساعة — قبل شهرين من حلولها — التى ينبغى أن يتحد فيها مئات الآلاف من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين من جميع أنحاء المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى فى حزب واحد ؟

ثم وضعت المبررات : أحيا الحزب الموحد من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين أملا كبيرا فى أن سوف يتغلب على ما كان مخيبا لآمالى حتى الآن فى الاتحاد السوفييتى ، وفى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى هل تكون كل النظريات المستخدمة فى مثل هذا القرار التاريخى صحيحة مائة فى المائة حقيقة ؟

ألم يوافق رأى « آكارمان » فى انتهاج طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ؟ ألم يكن كل هذا — هكذا قلت لنفسى — أهم من خطوات « تكتيكية » مشبوهة ؟

* * *

الطريق الى الوحدة

عقد فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ مؤتمر مشترك لقيادة الحزبين الديمقراطى الاشتراكى والشيوعى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى • وتقرر فى هذا المؤتمر ، الذى اشترك فيه ثلاثون عضوا من قيادة الحزبين ، الدعوة الى مؤتمر الوحدة بين الحزبين فى ٢١ ، ٢٢ ابريل • وأعلنت فى نفس الوقت مسودة المبادىء الأساسية وأهداف — وكذلك صيغة — الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

وبهذا بدأت — كما عبرت الصيغة الرسمية — « المرحلة الثالثة » للوحدة • « فالمرحلة الأولى » — وهى فترة العمل المشترك — استمرت من يونيو سنة ١٩٤٥ حتى مؤتمر ديسمبر سنة ١٩٤٥ • وحددت « المرحلة الثانية » بالفترة من ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ م حتى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ م • كل ما شاهدته حتى الآن من حملات الدعاية للوحدة ، لم يكن شيئا بجانب ما بدأ الآن •

تركز عملنا فى الوحدة فقط فاشتدت الدعاية السياسية بين الجماهير ، وكان يشرف عليها آنذاك « رودولف دوللينج » الذى أصبح فيما بعد رئيسا للقسم السياسى فى الشرطة • فتوالى طبع المنشورات والاعلانات دون انقطاع ، ولم يعالج فى كراستى الثقافية سوى موضوع واحد : الوحدة •

لم تمر ندوة ولا اجتماع ولا مؤتمر ، أيا كان الموضوع الذى من أجله عقدت هذه اللقاءات دون أن يطالب المجتمعون بالوحدة فورا بين الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فتواترت القرارات والتوصيات بكميات كبيرة على اللجنة المركزية ، وهيئة تحرير « جريدة الشعب الألمانية » •

وفى وسط زحام هذه الحملة الدعائية للوحدة ، استدعى « فريد أولسنر » كل العاملين فى القسم السياسى والدعاية • فرأينا على المنضدة نسخا من مشروع رسم كبير ملون لعلم وشعار الاتحاد الاشتراكى الألمانى المقبل •

« هاهى ذى الاقتراحات الأولى لشعارنا الجديد ، لقد كلفنا عددا كبيرا من الرسامين برسم شعار للاتحاد الاشتراكى الألمانى ، بحيث يحتوى على رمز الأيدى المتشابكة » •

كان أمامنا ثمانية أو عشرة رسومات تقريبا ، مرسوما عليها الأيدى المتشابكة بشكل دائرى ، والكلمات : الاتحاد الاشتراكى الألمانى • قال أحد القياديين من قسمنا — وكان فى معسكرات الاعتقال فى ألمانيا أثناء عهد هتلر — :

— « لا يعجبنى الشكل الدائرى ، اذ من الممكن أن يذكر بالرسم النازى » • فأيده الآخرون بسرعة ؛ ثم دارت مناقشة طويلة حول أى شكل نختار ، وأخيرا اتفقنا على الشكل البيضاوى • فبلغ الرسامون بالتعليمات الجديدة ، وبعد أيام قليلة اجتمعنا مرة أخرى ، لنشاهد عددا من رسومات الرسامين •

كان أحسن رسم حاز قبولنا عبارة عن خلفية بيضاء رسمت فيها الأيدى المتشابكة ولكن لم نستطع أيضا الاتفاق عليه ، فاقترح « أوتو جروتيفول » — وهو رسام هاو — أن يرسم علم أحمر على الخلفية البيضاء ، فوافق الجميع على اقتراحه ، فأعيدت الرسومات مرة أخرى الى الرسامين مع الاقتراح الجديد ، ثم توصلنا فى الاجتماع التالى الى قرار حول الرسم :

ينبغى أن يرسم علم أحمر على الأرضية البيضاء ، وأمامه أيدى متشابكة باللون الذهبى وحول الاطر ، على الأرضية المشعة باللون الأزرق ، يكتب باللون الذهبى كلمات : الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

والآن •• أصبح عندنا نظام أساسى ، وشعار دعائى قصير ، ورسم ، ولم يبق سوى شىء واحد : الحزب الموحد •

تركزت كل الجهود الآن على تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى كل أنحاء المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى وفى برلين فى الوقت المحدد •

ازدادت فى هذه الأثناء المعارضة فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ضد الاندماج الفورى للمنظمات ونما الشك فى حسن نية الحزب الشيوعى الألمانى •

وبينما لم يكن من الممكن ظهور هذه المعارضة علنا فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، توصل المعارضون فى برلين الى قرار باجراء استفتاء عام لكل أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى مسألة الوحدة ، وتقرر أن يجرى هذا الاستفتاء فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ م •

رفضت اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى — وكانت آنذاك برئاسة « جروتيفول » قد أقرت الوحدة — الاستفتاء • كما منع الحكمداريون السوفييت اجراءه فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

انتقد بعض قياديى الحزب الشيوعى المعروفون هذا الاجراء ، وسمعت من أحد الرفقاء قوله :

« من الطبيعى أن يوجد فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ارتياب كبير فى الوحدة ، ولكن الشك سيزداد حدة ضد الوحدة ، بسبب منع اجراء مثل هذا الاستفتاء ، اتركوا الرفقاء الديمقراطيين الاشتراكيين يفصلوا فى هذه الأشياء » • فوافقته على هذا الرأى •

منع اجراء الاستفتاء فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وبرلين الشرقية ، ولم يجر الا فى المناطق الغربية من برلين التى تسيطر عليها قوات الحلفاء الغربيين ، فأدلى ٣٢٫٥٤٧ عضوا ديمقراطيا اشتراكيا من سكان برلين الغربية بأصواتهم • وكانت النتيجة كما يلى :

١ — ٢٫٩٣٧ صوتا أيدوا الوحدة الفورية مع الحزب الشيوعى •

٢ — ١٤٫٧٦٣ صوتا أيدوا تحالف الحزب الديمقراطى الاشتراكى مع الحزب الشيوعى فى العمل المشترك والنضال الأخوى •

٣ — ٥٫٥٥٩ صوتا عارضوا كل وحدة وكل تحالف فى العمل مع الحزب الشيوعى — كان من المسلم به أن الغالبية العظمى من الديمقراطيين الاشتراكيين فى برلين ترفض الاندماج الكلى الفورى مع الحزب الشيوعى •

وبعد أن عرفت هذه النتيجة فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، تلقينا تعليمات بأن نضاعف حملة الدعاية للوحدة ، فعقدت الاجتماعات والمؤتمرات ، وساد فى كثير منها حماس صادق وأمل فى أن يتغلب أخيرا على هذا الانقسام البغيض ، وفى أن تتوحد التقاليد العريقة فى كلا الحزبين فى الحزب الجديد •

استخدم الضغط على كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين الذين كانوا يعارضون الوحدة — ولكن حتى نحن العاملين فى قسم الشئون السياسية والدعاية فى اللجنة المركزية ، تركنا فى غفلة عن أحداث وقعت فى تلك الأيام ، فلم أعرف عن عملية القبض على معارضى الوحدة فى

صفوف الديمقراطيين الاشتراكيين الا فى حالة واحدة فى حى « برينسلاوبرج » أغضبت بعض القياديين فى الحزب الشيوعى فى برلين غضبا شديدا •

« لا يضر هؤلاء الروسيون بعمليات القبض التى يقومون بها أحد الا الشيوعيين ، فاذا لم يرد بعض القياديين الآن ، فدعوهم وشأنهم ، فسوف يقتنعون بصواب الوحدة فيما بعد » •

لم تزل الخيالات تسيطر علينا آنذاك ••

اذ نشرت قصة من أحد مراكز « ميكلينبرج » بين كل القياديين فى تلك الأيام ، وقصها « فالديمار شميت » لى : « دعا حكمدار المركز سكرتيرى الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى فجأة فى يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى لتناول العشاء عنده فى الساعة السابعة مساء ، فوصلا فى وقت واحد ، فحيا هما الحكمدار بحرارة ، وتقمص شخصية رسمية على مستوى عال وقادهما الى صالة الطعام ، وكانت المائدة معدة اعدادا كما فى الاستقبالات الدبلوماسية • وكان عليها كل ما لذ وطاب ، وكان الحكمدار يحييهما بين الحين والآخر ويحثهما على المزيد من الأكل : « تفضلا •• كلا •• » فأكل سكرتيرا الحزبين فى المركز • ثم دعاهما الى الشراب : « تفضلا •• شربا •• » وصب لكل واحد منهما كأسا من « الفودكا » ، فتردد الرجلان ، ولكن الحكمدار أصر على ذلك وقال لهما : « لابد أن تشربا » •

فشرب الرجلان بتضرر كأسيهما من الفودكا •

« والآن تصافحا » !

فنفذ الرجلان الأمر وتصافحا •

فصاح الحكمدار مسرورا :

« جميل جدا •• أستطيع الآن أن أبعث بتقرير بأن الوحدة قد تمت فى مركزنا » •

عقدت مؤتمرات مشتركة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٦ فى المراكز ، وفيما بعد فى كل مقاطعات المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، واندمجت المدارس المسائية : وصدرت جريدة مشتركة فى « زاكسين » وفى « تورينجن » وفيما بعد فى المقاطعات الأخرى ، وأعلنت « زاكسين » و « ميكلينبرج » فى مؤتمرهما الحزبى الذى عقد فى ٨ ، ٩ ابريل أن الوحدة قد تمت عندهما • وفى ١٣ ، ١٤ ابريل عقد الحزب الشيوعى

والأعضاء المؤيدون للوحـدة من الديمقراطيين الاشتراكيين مؤتمرهما الحزبى فى برلين • وحضرت هـذا المؤتمر حيث ألقى فيه « فالديمار شميت » رئيس الحزب فى برلين آنذاك المحاضرة الرئيسية •

وعقب عليها « أولبريخت » • لقد كان الخطاب الأول الذى بين فيه بوضوح وعنف التباين والتعارض مع المنطقة الألمـانية الغربية ، فبدأ مقارنته بقوله :

« فعندهم فى المناطق الغربية ـ وعندنا فى الاتحاد السوفييتى •• ضحك الجميع بصوت عال ـ لم تكن عبادة « أولبريخت » قد وجدت آنذاك بعد ـ عندما سبق لسان « أولبريخت » فقال : « عندنا فى الاتحاد السوفييتى ••• » وعندما أدرك ذلك خجل وقال : « أنا أقصد طبعا : عندنا فى المنطقة السوفييتية •••» •

وبعد أيام قليلة بدأ مؤتمر حزبى مركزى لأعضاء الحزب الشيوعى الألمـانى وأعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى لتقرير الوحدة • ولم أعلم الا فيما بعد ، كيف أظهر مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى الاتجاه الحقيقى بين أعضاء هذا الحزب فى المنطقة السوفييتية وفى برلين ، وأن الوفود التى لم تكن موافقة على الوحدة ، أنزلت عنوة من القطارات وهى فى طريقها الى الاجتماع وألقى القبض عليها • وكنت قد اعتقدت آنذاك أن هـذا المؤتمر يمثل الغالبيـة العظمى من أعضـاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى •

وفى صباح يوم ١٩ ابريل اتجهت مع الزملاء الآخرين العاملين فى اللجنة المركزية الى المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى الألمـانى الذى عقد فى المسرح الألمـانى فى شارع « شومان » •

كانت المنصة تلمع باللون الأحمر الفاتح ، وكتب وراءها على الحائط بالخط العريض : سلام ـ بناء ـ تقدم •

حيا « فيلهيلم بيك » الحاضرين باسم اللجنة المركزية ، ومن بينهم أيضا ممثلون عن سلطات الاحتلال المتحالفة ، ثم عبر عن الأمل فى أن يلقى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى : الذى سيتكون ـ اعترافا وتأييدا من الحلفاء • كانت الخطب لم تزل قصيرة آنذاك ، فتحدث « أولبريخت » عن سياسة الحزب ، و « فرانس داليم » عن المنظمات ، فأعلن أن أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ عضوا جديدا طلبوا الانضمام الى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، وأكد « داليم » بنوع خاص على الديمقراطية

داخل اطار حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى المقبل : « ستتاح الحرية الكاملة فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى للأعضاء فى التعبير عن آرائهم » •وتحدث « أنتون آكارمان » عن المسائل الأيديولوجية ، فعبر مرة أخرى عن نظرية اختلاف الطرق الى الاشتراكية فى البلاد المختلفة :

« •• غير أن من الخطأ الفاحش ، ــ ذلك الخطأ الذى بدأنا ارتكابه فى المـاضى ــ استخراج مبادىء « لينين » و « ستالين » التى وضعت لحالات خاصة فى بلدهما ، ومحاولة تطبيقها حرفيا فى ظل ظروف مختلفة ، أو تقليدهما فيما فعلاه فى أوضاع مختلفة تماما عن أوضاعنا • يجب أن نتجنب هذه الأخطاء اذا أردنا أن نتجنب ارتطام السفينة » •

ولوحظ أنه كان رزينا عندما قال ضاغطا على مخارج الحروف :

« •• سيكون حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى حزبا مستقلا ، لأنه سيكون حرا حرية كاملة فى اتخـاذ قراراته ، ولأنه لا ينظر الى المبادىء الأساسية فى « المـاركسية » على أنها دستور ، ولا على أنها مبادىء عقيدية جامدة ، بل سيستخدمها فى ظل ظروف ألمـانية خاصة ، وعلى الطريق الألمـانى الخاص فى التطور » •

فقوبل هذا التفسير بتصفيق حاد •

وفى اليوم التالى تحدث « فيلهيلم بيك » عن الحزب الموحد ، فلم يقتصد فى نقده زعامة الحزب الشيوعى الألمـانى السابق حيث قال : « كنا نحن الشيوعيين نطمح دائما الى أن نطبق تجربة ثورة أكتوبر حرفيا فى ألمـانيا ، وبهذا تجاهلنا الخواص الوطنية الألمـانية • وحركة العمال الألمـانيين » •

ثم جرت عملية انتخاب مجلس الادارة فى نهاية المؤتمر ، فانتخب أربعون قياديا سينضمون بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى الى مجلس ادارته الذى سيضم ٨٠ عضوا ، وكان الأمل السائد أن فروع حزب الاتحاد الاشتراكى ستتأسس فى جميع أنحاء ألمـانيا بعد ذلك بوقت قصير ، فانتخب اثنى عشر من الأربعين من سكان ألمـانيا الغربية •

وافق المؤتمر فى النهاية على قرار بالاجماع ، جاء فيه :

عقد مؤتمر الحزب الشيوعى الألمـانى مع مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى جلسات مشتركة فى يومى ٢١ ، ١٢ ابريل سنة ١٩٤٦ فى قصر « أدميرال » فى برلين لاتمام وحدة الحزبين وتأسيس حزب الاتحاد الاشتراكى ••••

* * *

تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى

بدأ مؤتمر الحزب الموحد فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢١ ابريل سنة ١٩٤٦ فى قصر « أدميرال » فى برلين • فتدفق أكثر من ألف وفد ومئات الضيوف الى داخل المبنى — المؤتمر الحزبى المشـترك الأول للشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين •

تجمع أمام قصر « أدميرال » آلاف من الناس — لم يجمعوا بالقوة كما أصبح عادة فيما بعد ، بل جمعهم حب الاستطلاع وميلهم الطبيعى لاظهار التأييد — يلوحون لنا بأيديهم ، ويصيحون بكلمات التشجيع •

وأخيرا وجدنـا مكانـا •• جلس الشـيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون فى الصفوف مختلطين مع بعضهم ، وتبادل التحية منهم مع من يعرفه من الحزب الآخر ، وعرف بعضهم نفسه لمن لا يعرفه كلما سمح الموقف بذلك • ثم عزفت الفرقة افتتاحية « فيدليو » لـ« لودفيج فان بيتهوفن » ، وبعد دقائق قليلة دخل « فيلهيلم بيك » و « أوتوجروتيفول » الى المنصة من جانبين متقابلين ، فتقابلا فى الوسط ، وتصـافحا بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، استمر دقائق ، ثم قال « جروتيفول » : « عندما خطونا نحن الاثنين منذ لحظات على هذه المنصة : وضح عندى المغزى الرمزى لهذا العمل ، فقد جاء « فيلهيلم بيك » من اليسار وجئت من اليمين ، ولكن جاء كلانا لنتقابل فى الوسط » •

اندلع التصفيق الحاد ، وارتفعت صيحات الاستحسان ••

وهذا ما حدث أيضا مرارا فيما بعد ، ففى ضحى يوم ٢١ ابريل سنة ١٩٤٦ م سيطر الحماس الصادق الحر — غير المنظم من قبل الجهات العليا — على مشاعر الوفود •

انقضى اليوم الأول من المؤتمر فى القـاء كلمات الترحيب والتأييد ، واشترك فيها بنوع خاص كثير من الشيوعيين ، والمؤيدين للوحدة من الديمقراطيين الاشتراكيين من الأجزاء الغربية فى ألمـانيا •

وبدأ اليوم الثانى — وهو اليوم الحاسم فى مؤتمر وحدة الحزبين — بمفاجأة •• فقد أعلن مقدم الحفلة :

« أحب أن أقدم لـكم الرفيق « أمبورن » من « ليبزج » ليقدم هدية ، ويلقى كلمة توضيح قصيرة لها » •

فوقف واحد من الصفوف الخلفية ، واتجه الى المنصة بخطوات بطيئة ، وكان يمسك فى يده عصا كبيرة ، منظرها مخيف • وأخيرا وصل الى المنصة وعيون الوفود تلاحقه •

ثم أعطى العصا الكبيرة لـ« جروتيفول » الذى مد بدوره طرفها الآخر لـ« فيلهيلم بيك » بحيث أمسكا بها ، كل من طرف •

ثم شرح « أمبورن » حكاية العصا :

« هذه ذكرى من « أوجست بيبيل » خرطها بيده ، وترأس بها مؤتمر الحزب فى عام ١٨٩٠ م •

كانت المعارضة موجودة آنذاك ، التى كانت تسمى « الشباب » ، قال الذين حضروا المؤتمر ان « أوجست بيبيل » ضرب الشباب بهذه العصا عندما اشتد النزاع •

فضجت القاعة بالضحك ، ثم واصل « أمبورن » كلامه : « وبعد انتهاء المؤتمر أعطى « أوجست بيبيل » العصا لـ« باول رايسهاوس » ليحتفظ بها • وكان « رايسهاوس » من المؤيدين للوحدة ، فأراد أن يضع هذه العصا تحت تصرف مؤتمر الحزب ، اذا تحققت الوحدة ، ثم قال « أمبورن » : « ولما كنت وصيا على ميراث « رايسهاوس » رأيت لزاما على أن أسلم هذه العصا لمؤتمر الحزب ، وبالتالى لمجلس الادارة الجديد للحزب الموحد » •

وعلى الرغم من أن هذه التمثيلية كانت معدة من قبل ، فقد ظهر التأثر والانفعال على وجه « فيلهيلم بيك » • هل تذكر شبابه فى الحركة العمالية الألمانية ؟ ألا يزال يشعر فى هذه اللحظة بالارتباط القلبى بها ؟ — رغم كل التغيير الفكرى ، والنظام الحزبى والنفى فى الاتحاد السوفييتى ؟

عرفت « فيلهيلم بيك » معرفة جيدة ، تمكننى من التفرقة بين الشعور الأصلى عنده وما يتظاهر به من انفعالات •

ثم قدمه « جروتيفول » لالقاء كلمته ، فعدد « فيلهيلم بيك » مرة أخرى كل الأسس التى تدعو الى الوحدة ، وذكر كل المؤتمرات والقرارات التى طالبت بالوحدة • وانحرف عن التفسير الموضوعى مرة واحدة فقط ، وذلك عندما تحدث عن مؤتمر معارضى الوحدة فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، الذى عقد فى « تسيلندورف » وعن الاستفتاء ، فوصف المؤتمر فى « تسيلندورف » — متجاهلا تماما قوة الديمقراطية الاشتراكية

ـ بأنه « مهزلة » وأطلق على الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى برلين الذى أسس هناك : « نادى مستشفى تسيلندورف » • ولم يفكر أحد من الموجودين فى القاعة أن « نادى مستشفى تسيلندورف » سيثبت بعد ستة أشهر ، أنه أقوى حزب فى برلين •

كانت خطبة « فيلهيلم بيك » ـ بصرف النظـر عن تهكمه بهذه المجموعة ـ تذكيرا بالعمل المشترك المنسجم ، الذى سيقوم به الشيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون ، فى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ويجب أن يكون الهدف هو الاندماج التام « حتى تذوب الفوارق فلا يكون هناك ديمقراطى اشتراكى وشيوعى » •

وناشد كل الوفود وأعضاء الحزبين : « بأن يتسموا بروح الاخوة والصداقة والصبر » •

كذلك لم يتحدث « جروتيفول » آنذاك بتلك الرصانة التى أصبحت اليوم جزءا ثابتا فى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، بل صاغ كلمته صياغة رائعة دون اغراق فى المسائل العقائدية ، فتحدث فيها عن حاضر ومستقبل ألمـانيا ، وبين أن الاتحاد الاشتراكى الألمـانى يرفض مناهضة البلشفية ، « •• ولكن هذا الرفض بعيد كل البعد عن الارتباط الداخلى بنفوذ أجنبى » • وقوبل « جروتيفول » بتصفيق حاد لم يحدث فى المؤتمر كله حين قال :

« أنا أعتقد أن رجال سلطة الاحتلال السوفييتى ، سيأخذون كلمتى على محمل سىء اذا قلت : ان الاتحاد الاشتراكى الذى يخلق اليوم ، يكفل بواسطة قوته السياسية ـ على الأقل فى المنطقة السوفييتية ـ ضمانا كبيرا فى المنطقة السوفييتية ، يجعلنـا لا نحتاج الى البنادق الروسية » •

عبر التصفيق الهادر الذى اسـتمر دقائق عديدة ؛ وصـيحات الاستحسان عن الأمل فى أن الاشتراكيين الألمـانيين سيحبحون قريبا أسيادا فى وطنهم بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى فى اتخاذ طريق مستقل الى الاشتراكية ، يرتكز على تقاليدهم الخاصة •

أكد « جروتيفول » بنوع خاص على ضرورة الحرية الشخصية فى الحزب الجديد فقال :

« ان من واجبات الحزب تطوير الحرية الشخصية ، وتوسـيع

دائرتها ... يسود احترام حقوق حياة الانسان فى الأحزاب الألمانية الصغيرة بصورة أقوى وأسمى مما هى فى الحزب الاشتراكى » .

ثم جاءت نقطة الذروة : الاستفتاء على قرار تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى وبرنامجه ، وهيكل تشكيله الأساسى .

تضمنت « مبادىء وأهداف الاتحاد الاشتراكى الألمانى » — بجانب مطالب العصر التى صيغت فى ١٢ نقطة — نصا قصيرا عن الهدف الاشتراكى الأخير : « هدف حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى هو التحرر من كل استغلال واستعباد ، ومن الأزمة الاقتصادية ، والفقر والبطالة ، والتهديد بالحرب الاستعمارية . ولن يتحقق هذا الهدف — وهو حل مشاكل الحياة الوطنية والاجتماعية لشعبنا — الا عن طريق الاشتراكية ..

ويتيح الوضع الحالى فى ألمانيا — بانهيار جهاز سلطة الدولة الرجعى ، وقيام دولة دىمقراطية على أساس اقتصادى جديد — امكانية منع القوى الرجعية من استخدام القوة والحرب الأهلية ، للوقوف فى طريق التحرير النهائى للطبقة العمالية ..

ان حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى سيبذل ما فى وسعه للسير فى الطريق الديمقراطى الى الاشتراكية ، ولكنه سيستخدم الوسيلة الثورية ، اذا تركت الطبقة الرأسمالية طريق الديمقراطية ... » .

« من يوافق على هذه المبادىء والأهداف المقترحة للاتحاد الاشتراكى الألمانى » ؟ فرفع كل الحاضرين أيديهم .

وبهذا ووفق على البرنامج بالاجماع ، ثم تلا ذلك التصويت على هيكل التشكيل الأساسى . تلفت حولى مندهشا : فقد رأيت بالقرب منى مباشرة بعض الوفود لم ترفع يدها .

ثم نودى على المعارضين ، فرفع أعضاء ٢١ وفدا أيديهم .

« الممتنعون عن التصويت » ؟ فرفع ٤ وفود أيديهم .

أعجبت بهذه النتيجة ، اذ لم أر حتى اليوم — لا فى منظمة الشباب ولا فى الحزب الشيوعى الألمانى — صوتا معارضا فى المسائل السياسية « اذن سيكون الاتحاد الاشتراكى الألمانى شيئا آخر مغايرا لما رأيته حتى اليوم » هكذا فكرت مرتاح النفس ، ولم أكن أدرى آنذاك : أنها كانت الأولى ، ولكنها فى نفس لوقت المرة الأخيرة أيضا فى تاريخ الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى أن يصوت وفد فى مؤتمر الحزب ضد

اقتراح القيادة • ثم أخذ « أولبريخت » الجلسة فقرأ — بصوت عال ، وبلكنته « الزاكسية » المعروفة — قرار الوحدة :

« قرر المؤتمر الأربعون للحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى والمؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى الألمانى فى جلستيهما المنعقدتين فى ١٩ ، ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٦ م ، وحدة كلا الحزبين بأغلبية الأصوات •

يتكون من الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى والحزب الشيوعى الألمانى ، ابتداء من اليوم حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى » •

منع التصفيق الحاد « أولبريخت » من الاستمرار فى القراءة ، ثم بعد انتهاء التصفيق واصل قراءته :

« من يوافق على قرار الوحدة يتفضل مشكورا برفع يده » كانت الموافقة اجماعية فى هذه المرة •

وأخيرا أعلن أن مجلس الحزب يتكون من ٨٠ عضوا يمثل كل حزب بأربعين ، وهم الذين اختيروا أمس فى كل من مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى •

لم يبق الا انتخاب الرئيس • ابتسم كثير من الوفود عندما لم يكتف « أولبريخت » بالتصفيق ، وصيحات الاستحسان بعد أن أعلن اسمى « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » — وكانت هذه أول مرة ، وآخر مرة تحدث فى مؤتمر للاتحاد الاشتراكى الألمانى — بل طلب — بهدوء وموضوعية — من الجميع ابداء أصواتهم :

« أرجو من الرفقاء الموافقين رفع أيديهم » !

فارتعت الأيدى عاليـة ، كأشجار الغابات •

« المعارضون •• الممتنع عن التصويت » لا أحد •

« استقر انتخـاب الرفيقين « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » رئيسين للحزب بالاجماع » فاندلع التصفيق الحاد قاطعا ختام كلمة « أولبريخت » •

« ابتداء من اليـوم ، لا يوجـد ديمقراطيون اشتراكيون ولا شيوعيون ••• بل يوجد اشتراكيون فقط •• لا تتعلق أحداث اليوم بتوحيد الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين فحسب ، بل أيضا بميلاد جديد للحركة العمالية الألمـانية ••• » •

ثم غنى الجميع بصوت واحد أغنية : « اخوة ، الى الشمس ، الى الحرية » • قام الاتحاد الاشتراكى الألمـانى •

اجتمع فى المساء كل الوفود وكثير من القياديين فى قصر مدينة « فريدريسن » لحضور « حفلة ختام سعيدة » •

لم يكن هناك مقعد واحد من مقاعد الصالة التى يبلغ عددها ثلاثة آلاف خاليـا ، ووقف مئات أخرى من الرفقاء فى المدخل • فقد انتهى اليوم المليء بالأحداث ، والكل مفعم بالآمال ، اذ بدا كل شيء ناطقا بتحقيق رغباتنا : تقسيم مناصب الرئاسة ، كلمات التذكير بالزمالة ، والثقة التى وجهها « بيـك » الى الشيوعيين ، وتأكيد « جروتيفول » على الحرية الشخصية فى الحزب الجديد ، والانتخاب الأول ، الذى حطم عادة : باجماع الأصوات ، ولم يعتبره أحد شرا ، أو ضررا تجب مكافحته ودعوى اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية ، التى سجلت فى برنامج الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، واشارة « جروتيفول » الى احتمال نهاية الاحتلال السوفييتى •••

لم يخطر ببالى فى ذلك المساء أن نصف الذين اشتركوا فى مؤتمر الوحدة ، سيبعدون من نشاطهم ، أو يعزلون ، أو يشى بهم ، أو يقعون ضحية تطهير بعد أعوام قليلة •

حتى الذين أسهموا بنشاط كبير فى تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، لم يستثنوا من الوقوع فى هذا المصير •

فمن أعضاء السكرتارية المركزية الأربعة عشرة ، استقال « أوجست كارستين » لأسباب صحية ، وهرب « ايريش • ف جنيفكى » فى أكتوبر سنة ١٩٤٨ الى ألمـانيا الغربية ، ووصفه « أولبريخت » فيما بعد بأنه « عنصر طبقى معادى » — ونقل « أوتو مـاير » و « كيتى كيرن » و « هلموت ليمان » فى يناير سنة ١٩٤٩ م الى مناصب لا وزن لها ، واتهم « باول ميركير » فى أغسطس سنة ١٩٥٠ م « بعدم الثقة فى الزعامة السوفييتية ، وأنه نفذ أوامر الاستعماريين الأمريكيين فى المنفى » وبناء على هذه التهمة جرد من جميع المناصب • ولم يكن حال « فرانس داليم » بأحسن منهم ، اذ وجه التوبيخ اليه ، بأنه « غفل تماما عن محاولة عملاء الاستعمار التسلل الى الحزب » • وعـزل « ماكس فيشنر » من السكرتارية المركزية فى يناير ١٩٤٩ م ، ثم عزل من الحزب فى يوليو سنة ١٩٥٣ م بتهمة أنه « عدو الحزب والشعب » ، ثم قبض عليه بدعوى

أنه كوزير للعدل ، استخدم وظيفته فى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣(١) لحماية مثيرى الشغب الفاشيين من العقاب • كذلك أبعد « ايلى شميت » من الزعامة ، وعين فى منصب عديم الأهمية نتيجة شبهات حامت حوله فى حوادث ١٧ يونيو • وفرض على « آكارمان » — وهو بلا شك عقلية لها أهميتها فى السكرتارية المركزية — ممارسة عملية النقد الذاتى فى خريف عام ١٩٤٨ م ، وأنزلوه درجة الى المكتب السياسى فى يناير سنة ١٩٤٩ م وبعد حوادث ١٧ يونيو عزل من اللجنة المركزية لأنه كان يمثل « موقف التصالح » •

وهكذا فقد عشرة من الأربعة عشر عضوا فى السكرتارية المركزية الذين انتخبوا فى مؤتمر الوحدة بين تصفيق الوفود ، مراكزهم فى غضون أعوام قليلة ، وأنزلوا الى درجات دانية ، واتهم البعض بأنه « عدو الحزب » فطرد منه • لم يكن الضحايا أقل بين الأعضاء الثمانية عشر فى مجلس الحزب ، ولا بين القياديين البالغ عددهم أكثر من ألف ، الذين اشتركوا فى مؤتمر الوحدة ، فقد وقع الجزء الأكبر منهم — بنوع خاص — ضحايا حملات التطهير التى شنت بعد عام ١٩٤٨ م ، فبعضهم نزل من مركزه بطريقة لينة نسبيا ، والبعض الآخر طرد من الحزب ، أو قبض عليه •

لو علمت كل هذا فى مساء ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٦ م لتبخرت فرحتى وتهليلى ولكن لم يكن قد خطر ذلك ببالى بعد — بالضبط مثل كل الذين حضروا هذا المساء ، وكانوا سعداء ، وغادروا « القصر » مفعمين بالأمل والفرحة معتقدين أنهم شاركوا فى عمل وحدة الحركة العمالية الألمانية الكبير •

* * *

موسكو تعترف برأى « آكارمان »

تسلمت سودة روسية من ضابط الاتصال السوفييتى بعد أسابيع قليلة من تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى :

---

(١) ثار الشعب فى المانيا الشرقية فى ذلك اليوم ضد الحكومة ، فنزلت الدبابات الروسية فى الشوارع وقمعت الثورة بالقوة • ووقعت ضحايا كثيرة فى هذا اليوم • م • شامة •

« أيها الرفيق « ليونهارد » .. من فضلك ترجم هذه ترجمة دقيقة الى اللغة الألمانية .. فهى تتعلق بمسألة هامة جدا » .

كان العنوان مخيبا للأمل : « ما هى الديمقراطية » ؟ غير أنى عندما قرأتها لاحظت أنها تتعلق بفهم سياسى جديد تماما ، اذ يدعو المقال الى صيغة ديمقراطية وسط لألمانيا ، « تكون بين الديمقراطية الوطنية ، والديمقراطية الاشتراكية .. وتكمن خاصية هذه الديمقراطية فى الرغبة فى سيادة أغلبية السكان مع الاحتفاظ بأسس نظام الاقتصاد الرأسمالى ، والاحتفاظ بوسائل الانتاج الخاصة » ، وينبغى أن ينحصر التغيير فى تصفية عصابات الاحتكار الرأسمالى ، وتنفيذ الاصلاح الزراعى ، والقضاء على البقية الباقية من الفاشية ، دون تطبيق صيغة ومضمون النظام السوفييتى ويبدو لنا أن هذا النموذج من الديمقراطية أكثر قبولا لألمانيا فى المرحلة الحاضرة » .

ازداد اهتمامى عندما ترجمت بعد دقائق قليلة من الروسية : « فالاتحاد الاشتراكى لألمانى ضد الاقتباس الآلى من النظام السوفييتى كما هو ضد الاقتباس الآلى من النظام الانجليزى أو الأمريكى ، أو الفرنسى وتطبيق ما يقتبسه فى ألمانيا » . تلقى حزبنا بهذا اشارة من أعلى المراكز السوفييتية بألا نقلد النظام السوفييتى حرفيا ، بل نطبق صيغة تكون بين الديمقراطية الوطنية فى الغرب وبين النظام السوفييتى !

انتظرت بأعصاب مشدودة ما يحدث مع هذه الديمقراطية . هل كانت اشارة داخلية فقط للقياديين الكبار ؟ هل ستنسخ منها أعداد وتوزع كتعليمات الى عدد أكبر من القياديين ؟

وعندما تسلم ضابط الاتصال الترجمة قال لى : « سينشر هذا المقال » .

تعجب كثير من القياديين عندما ظهر لأول مرة فى العدد التالى من مجلة النظريات « العصر الحديث » — ولم يحدث مثل هذا اطلاقا ، لا قبلا ولا بعدا — مقال لم يوقع عليه كاتبه ، بل وضع عليه ثلاثة نجوم صغيرة . ومن الطبيعى أن كل قيادى عرف أنه مقال من أعلى المستويات . ولم يمر مساء فى الأسابيع التالية ، دون أن يدور الحديث حول هذا المقال ، وقد دل هذا على أن الطريق الألمانى الخاص الى الاشتراكية لم يعد النظرية الرسمية لحزب الألمانى فقط ، بل نظرية موسكو .

أصبح الطريق المختلف الى الاشتراكية فى عام ١٩٤٦ م جزءا لا يتجزأ من « الخط » فى الأحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى •

ولا يرجع التقدم الكبير للأحزاب الشيوعية فى كل البلاد فى الفترة من عام ١٩٤٥ م الى عام ١٩٤٨ م الى مشاركة الشيوعيين فى حركات المقاومة فحسب — وان كان ذلك عملا هاما — بل أيضا الى حقيقة أن هذه الأحزاب أعلنت فى ذلك الوقت أنها ضد التقليد انحرفى للطريق السوفييتى •

بقى هذا السؤال مفتوحا :

هل كانت موافقة « ستالين » والزعامة السوفييتية آنذاك على دعوى اتخاذ طريق خاص الى الاشتراكية صادقة ؟

هل كانوا مقتنعين حقا بينهم وبين أنفسهم بضرورة سلوك طريق مستقل الى الاشتراكية فى البلاد المختلفة ؟

أو أوحوا بهذه الدعوى فقط ، وطالبوا بها بهدف ترك الأحزاب الشيوعية تقوى ، ويشتد ساعدها ، ثم القاء هذه الدعوى فى سجل المحفوظات عندما يتحقق الهدف ؟

* * *

الانتخابات الأولى

تركز عملنا كله فى الأربعة أشهر الماضية على تحقيق الوحدة ، وقام الآن الحزب الموحد ، فماذا بعد ذلك ؟

شعرنا نحن القياديين — الذين لا يتصور لديهم حياة بدون نشاط سياسى أو حملات دعائية — بالفراغ ، فلأول مرة لا يوجد ما نقوم به سوى الأعمال الروتينية •

كان جهاز الحزب المركزى مشغولا فى ذلك الوقت بأعماله الداخلية فقط : بتأثيث وتقسيم الحجرات فى مبنى الحزب الجديد الضخم ، الذى يطلق عليه « منزل الوحدة » فى شارع « لوترينج » رقم ١ ، وبجمع هيئات تحرير جريدة الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابقة « الشعب » وجريدة الحزب الشيوعى السابقة « جريدة الشعب الألمانية » ، وكذلك بتوزيع المناصب على أعضاء السكرتارية المركزية •

أصبح مقرنا فى شارع « فال » رقم ٧٦ — ٧٩ — الذى كان يضم

سابقا السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى الألمـانى — مقرا للقسم السياسى والدعاية ، الذى تغير اسمه الى قسم الثقافة والاعلام ، ولدار نشر الحزب أيضا •

أصبح كل منصب الآن مشغولا باثنين : قيادى من الحزب الشيوعى السابق ، وآخر من الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وبهذا تضاعف عدد العاملين ، فصار العمل فى جهاز الحزب ثقيلا وبطيئا ، وسار كل شىء أكثر تمهلا منه فى الحزب الشيوعى الألمـانى •

وبعد أسبوعين عقد اجتماع لقسمنا « الثقافة والاعلام » فشرح فيه « أوتو جروتيفول » اقتراحا من السكرتارية المركزية : « فكرنا فى أن نجعل الدروس الثقافية مرتين فى الشهر بدلا من مرة فى الأسبوع •• وأحب أن أقول ، ان ارهاق الرفقاء ••• » •

أعطانى « أولسنر » حق القاء الكلمة الأولى فى المناقشة ، ولكن لم تأت كلمتى فى الدفاع عن الدروس لثقافية الأسبوعية بنتيجة ، وكما جرى فى كل مكان فى أجهزة الحزب ، فقد استبدلت طريقة العمل المحمومة نشاطا التى سادت فى أجهزة الحزب الشيوعى السابق ، بطريقة العمل الهادئة للحزب الديمقراطى الاشتراكى •

مضت أسابيع عدة ، ثم لوحظ بوضوح انخفاض درجة الحماس فى الدروس الثقافية الأسبوعية ، وفى الأنظمة الخاضعة للحزب • لا شىء أكثر خطرا على مثل هذا الحزب من الركود فى بعض الأسابيع • لم يكن هناك واجبات ضرورية ، تشد أنفاس العاملين فى أجهزة الحزب •

ثم أضيف الى ذلك خيبة أمل كبيرة : التباطؤ فى الاعتراف بالاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، فـم يعترف به فى برلين الا فى ٢٩ مايو — أى بعد خمسة أسابيع من التأسيس — فى الاجتماع السابع والخمسين لحكمدارية الحلفـاء • ولكن اعترف أيضـا فى نفس الوقت بالحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى تأسس حديثا فى أوائل العام •

تسرب الشك شيئا فشيئا الى بعض الذين يميلون الى التروى قبل الاقدام على العمل ، ربما كان ينبغى علينا الانتظار فترة أخرى ؟ ربما تمت الوحدة بأسرع مما يجب ؟ ألم يكن فى امكاننا التوصل الى اندماج المنظمات اندماجا حقيقيا لو كان التطور أشد بطئا من هذا ؟

كان التباطؤ فى الاعتراف بالحزب الجديد فى برلين ، وشغل كل منصب باثنين ، وتضخم أجهزة الحزب ، وقبل هذ كله عدم العمل أسابيع ، سببا فى احداث عواقب سيئة على الحزب ، فلم يكن الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى يونيو سنة ١٩٤٦ م هو نفسه الذى كان فى نهاية ابريل • لم نكلف بواجبات جديدة الا فى لنصف الثانى من يونيو ؛ فقد تقرر استفتاء شعبى فى مقاطعة « زاكسين » فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م حول نزع ملكية مجرمى الحرب والأعضاء المسئولين فى الحزب النازى ، ولم يكن الهدف من اجراء هذا الاستفتاء تدعيم قرار نزع الملكية ، فقد تقرر من قبل نقل ملكية مؤسسات الزعماء النازيين والمسئولين عن الحرب الى يد الدولة ، بل كان الغرض منه فى المقام الأول أخذ صورة عن الرأى السائد عند الشعب •

نزل الحزب — الذى أصابه الكسل والتعب من جراء عدم العمل أسابيع طويلة — بقلبه فى هذه المعركة ، فتألم القياديون فى جهازنا الذين رجعوا من « زاكسين » : « ان الموقف فظيع جدا •• فقد أصبح الناس سلبيين بدرجة لا تتصور » •

تحرك الحزب شيئا فشيئا ، ولكن عاد النشاط فى قسمنا الى عهده الأول قبل بدء عملية الاستفتاء — يجب أن نعمل شعارات ولافتات لمقاطعة « زاكسين » : « قولك نعم من أجل السلام » ، « مؤسسات مجرمى الحرب والنازية فى يد الشعب » ••فطبع منها مئات الآلاف ووزعت فى مقاطعة « زاكسين » •

أعلنت نتيجة الاستفتاء الشعبى فى ٢ يونيو : فما يقارب ٢ر٧ مليون صوتا (٧٧ر٧ ٪) « نعم » ، وقريبا من ٦٠٠ر٠٠٠ صوتا (١٦ر٥ ٪) « لا » ، وأكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ صوتا غير قانونية ، فصرف النظر عن اجراء استفتاء فى المقاطعات الأخرى ، وقامت أول مؤسسة يملكها الشعب •

وبعد النتيجة المرضية نسبيا تقرر اجراء أول انتخاب للمجالس المحلية فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولأننا كنا نتوقع نتيجة طيبة فى « زاكسين » فقد تقرر أن يجرى الانتخاب فيها فى أول سبتمبر ، وفى « تورينجن » وقرى « زاكسين » فى ٨ سبتمبر ، وفى « براندينبرج » و « ميكلينبرج » — حيث كنا نتوقع صعوبات —

فى ١٥ سبتمبر • وحرم من الادلاء بصوته أفراد الـ S S (١) السابقين ، وأفراد الـ SD (٢) « الجستابو » (٣) كذلك القياديون السابقون فى N. S. D. A. P. (٤) ابتداء من رئيس اللجنة المحلية فى القرية فما فوق

دارت مناقشات واسعة عندنا حول هذه المسألة : هل ينبغى أن يقتصر الترشيح على الأحزاب الثلاثة — حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى — ، أو ينبغى أن نحاول بواسطة رجالنا دفع المنظمات الجماهيرية — مثل اللجنة النسائية ، ورابطة نقابات العمال الحرة ، ومنظمة الشباب الألمانى الحر — الى تقديم قائمة مرشحين ، كى نكسب بذلك أصواتا بطريق غير مباشر ؟

أيد معظم القياديين — الذين قاموا بنشاط فى ألمانيا فى عهد « هتلر » — أن تشترك الاحزاب فقط فى الانتخابات • « •• فليس لموضوع ادخال المنظمات الأخرى فى الانتخابات أى معنى ، اذ قل أن ينتخب أحد هذه المنظمات » • كان « أولبريخت » هو المدافع الوحيد عن اشتراك هذه المنظمات الجماهيرية ، واستعمل نفوذه لتنفيذ هذا الرأى •

قدمت مراسم التودد والتقرب الى كل ، لينجح الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى الانتخابات ، يرجع من روسيا قبل الوقت المحدد أسرى الحرب ، الذين حولوا فكريا هناك الى مناهضين للفاشية ، ليساعدوا الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى حملته الانتخابية •

وكان أهم من ذلك اتخذ اجراء آخر ، ففى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م عندما أعلنت مواعيد اجرا- الانتخابات ، ظهر بيان مجلس الاتحاد الاشتراكى الألمانى يبين موقفه من أعضاء الحزب النازى السابق العاديين ، وكان معدا قبل هذا بوقت طويل •

« لا يجوز لنا تكرار الخطأ الذى ارتكبه الحزب الشيوعى النمساوى فى انتخابات خريف عام ١٩٤٥ م فقدر كل الرفقاء النمساويون جمهور الحزب النازى بواسطة طريقتهم البدائية فى محاربة النازية ، فعزلوا بذلك عن الجماهير » كانت هذه هى الحجة الداخلية (أى التى لم تنشر)

---

(١) قوات ماليشيا الحزب النازى •

(٢) جهاز أمن الدولة • (٣) المخابرات العامة •

(٤) حزب العمال الوطنى الاشتراكى : الحزب النازى •

الحاسمة للموقف الجديد ، وعلى الضد من ذلك أعلن رسميا : « يرى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى أن الوقت قد حان لقبول الأعضاء الصغار السابقين فى الحزب النازى ، والذين شايعوه آنذاك ، قبولهم الآن فى أجهزة بناء الديمقراطية » .

فهبت عاصفة من السخط والغضب فى صفوفنا ، لم نكن نتوقعها بهذا الحجم ، فأيما كان الموضوع الذى يعالج فى أى اجتماع للحزب ، كان أول المناقشين يتحدث أولا بغضب عن مسألة النازية .

ولم يبق سوى شىء واحد فقط : الثقافة .

« يجب أن نكتب حالا كراسة ثقافية عن مسألة علاقة الاتحاد الاشتراكى بأعضاء الحزب النازى السابق العاديين . فأجل الموضوع الذى كان مقررا من قبل أن تعالجه الكراسة فى أسبوعين لأن هذا الموضوع الجديد أهم من كل شىء آخر الآن » . وبعد ذلك بأسبوعين قضيت مع « آكارمان » فترة ما بعد ظهر يوم الأحد ومساءه ، لنضع الصيغة الأخيرة ، لأكثر الكراسات تعقيدا حتى الآن ، وأخيرا وقع عليها مصرحا بالطبع .

« أولسنر » فى « زاكسين » ، ولا تكفى الكراسة الثقافية ، ولذا يجب عليك أن تكتب مقالا فى نفس الموضوع فى جريدة « ألمانيا الحرة »

— « تحت أى عنوان » ؟

— « اتجاه الحزب الواضح فى مسألة النازية » .

بدت لى المبالغة فى هذا ، وأخيرا تقرر أن يظهر المقال الثقافى تحت عنوان « مجرمو الحرب والمسئولين فى الحزب النازى ، وأعضاؤه العاديون » وختمت مقالى بهذه الفقرة :

« .. تحديد حاسم واضح ، ليس طبقا للظواهر ، بل للمواقف ، عقاب سريع رادع لمجرمى الحرب الذين صدر منهم هذا الاجرام ، واجراءات تكفير عن السيئات ضد أولئك الذين كانوا نشطين فى الحزب ، الذين كانوا حملة السياسة والمدافعين عن الأعمال الاجرامية فى الحزب النازى ، ويحاولون اليوم تشويش الجو على حركة البناء الجديدة ، ولكن يعفى من هذا كله أولئك الملايين العديدة من أعضاء الحزب النازى السابق ، الذين يريدون بصدق واخلاص اتخاذ طريق جديد ..

وهكذا ، وفقط بهذا الأسلوب يمكن أن تحل مسألة معاملة النازيين حلا صحيحا » .

اقتنعت شخصيا بهذا ، ولكن لم يكن من السهل أن يقتنع الرفقاء بهذا الرأى فى الحلقات الثقافية ، وقد جند لها كل القياديين السابقين ، فقد كان المعارضون للنزعة — الذين لا يفرقون بين النازيين المذنبين حقيقة وبين النازيين العاديين — أتقياء لدرجة ، أنه لم يكن من الممكن اقناعهم بالفرق الواضح لا بشق الأنفس •

ثم بدأت بعد هذا مباشرة اجتماعات — أوحى بها ونظمها الاتحاد الاشتراكى الألمانى — مع أعضاء الحزب النازى السابق •

« لقد زادت المسألة عن حدها » قال ذلك بعض القياديين ، وعارضهم آخرون ، تأثروا بهذه الاجتماعات قائلين : « ان من بينهم أناسا مدهشين جدا ، ويمكن أن يصبحوا عندنا من الممتازين نشاطا ونجاحا ، فلا تتذمروا كثيرا » •

رجع « فالديمار شميت » — الذى قضى عشر سنوات تقريبا فى معسكرات الاعتقال — الى المنزل ذات مساء من أحد الاجتماعات مع الأعضاء العاديين فى الحزب النازى السابق ضاحكا وقال لى : « لقد شاهدت كثيرا ، ولم أحلم بمثل هذا قط ، فالناس متحمسون لبيان الاتحاد الاشتراكى تحمسا شديدا ، وختم أحدهم خطابه الحماسى بشعار صاغه بنفسه » •

نظر الى « فالديمار شميت » مبتسما ، ثم قال : « لقد ألفت بنفسك شعارات كثيرة ، ففكر قيلا ، وقل لى بأى شعار صاح هذا الخطيب » ؟

ذكرت له بعض الشعارات ، ولكنه هز رأسه ، ثم قال :

« كان شعار هذا النازى الصغير أحسن بكثير ، لقد صاح بأعلى صوته : يحيا الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، الصديق الحميم للنازى الصغير » !

بعد أن سكنت عاصفة خطنا الجديد بالنسبة للأعضاء العاديين فى الحزب النازى السابق ، وجه الأعضاء والقياديون كل قواهم فى حملة الدعاية لانتخاب المجالس المحلية • وكان وضعنا ممتازا جدا : لا يستطيع أى حزب ترشيح أحد من أعضائه فى أى منطقة الا اذا كان له أكثر من فرع فيها ، فلحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فرع فى كل مركز ، وكل قرية ، أما حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فلم يصلا الى هذا الحد فى انشاء فروعهما ، ولهذا لم يرشح أحد فى كثير من المناطق سوى عضو الاتحاد الاشتراكى • ولم يكن من

المفاجآت أن يحصل الاتحاد الاشتراكى فى انتخابات « زاكسين » التى جرت فى أول سبتمبر على أصوات أكثر من مجموع ما حصل عليه حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى والحزب الديمقراطى الليبرالى من أصوات ، اذ حصل الاتحاد الاشتراكى على ١٫٦٠٠٫٨٥١ صوتا ؛ والحزب الديمقراطى الليبرالى على ٦٧١٫٢٧١ صوتا ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى على ٦٥٥٫١٤٧ صوتا ، ولم يحصل ما كان يسمى « بالمنظمات الجماهيرية الا على ٦٠٫٠٠٠ صوتا مجتمعة .

كانت الحملة الانتخابية فى قرى « زاكسين » وفى « تورينجن » أكثر احتداما ، فقد كان نشاط الأحزاب الوطنية أكبر مما توقعنا . وحدث اضطراب ، عندما علقت أوساط معينة فى الحزب الديمقراطى الليبرالى فى « هاللى » يافطة دعائية على ترام يسير فى شوارع المدينة قبل الانتخاب بيوم واحد ، كتب عليها : « من أجل الارتباط بالاتحاد السوفييتى ، انتخبوا الاتحاد الاشتراكى » .

كانت انتخابات أغسطس فى « زاكسين ــ أنهالت » وفى « تورينجن » أكثر صعوبة بالنسبة للاتحاد الاشتراكى الألمانى منها فى « زاكسين » . وتضاعفت الجهود أكثر بالنسبة للانتخابات التى ستجرى فى ١٥ سبتمبر فى « براندينبرج » وفى « ميكلينبرج » .

أخبرنا الرفقاء بعد أن قاموا برحلة عبر المنطقة عن المناقشة الحادة حول موضوع : خط « أودر ــ نايسى » . وحدث هذا خاصة فى « ميكلينبرج » لأنه استوطنها عدد كبير من اللاجئين القادمين من المناطق الواقعة فى الطرف الآخر من « أودر ــ نايسى » ، وقيل هناك : « يجب عمل شىء فى هذا الموضوع » .

نشر « ماكس فيشنر » بيانا فى آخر يوم قبل اجراء الانتخابات : « أحب أن أوضح الوضع بالنسبة للحدود الشرقية لألمانيا ، ان الاتحاد الاشتراكى الألمانى سيقف فى وجه أى محاولة تستهدف استقطاع أجزاء من ألمانيا ، فالحدود الشرقية هى حدود مؤقتة فقط ، ولا يمكن أن تثبت الا فى مؤتمر سلام ، تشترك فيه كل الدول الكبرى المنتصرة »(١) فتنفس أعضاء الحزب الصعداء ، وتلى تفسير « فيشنر » فى كل مؤتمرات الحملة الانتخابية ، بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، غير أن من

---

(١) جريدة ألمانيا الحرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

الواضح أن ذلك استمر فى التصعيد دون توقف ، وفضلا عن ذلك فلم يبد من المستحسن أن يظهر قيادى من طبقة القمة فى الاتحاد الاشتراكى بمثل هذا التفسير ، ويتباهى به فى الحملة الانتخابية • ولهذا ظهر بعد ذلك بوقت قصير بيان رسمى من مجلس الحزب الأعلى ، أضعف من صيغة التفسير السابق : « سوف يفعل الاتحاد الاشتراكى الألمانى كل شىء ، كى يسمع صوت الشعب الألمانى أيضا حول مسائل حدود ألمانيا الجديدة فى مؤتمر اسلام »(١) •

انتهت انتخابات المجالس المحلية — كما كان متوقعا لها — بانتصار كبير لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد حصل فى كل المقاطعات الخمسة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى على ٧٦ر٢ ٪ ، وكان مجموع أصواته مع مجموع أصوات ما يسمى « بالمنظمات الجماهيرية » ٨٢ ٪ تقريبا •

لم ننخدع فى قسم الثقافة والاعلام بهذه النتيجة ، فقد علمنا أنها لا تتطابق مع الأصوات لحقيقية ، بل يرجع الفضل فيها الى وضعنا المفضل ماديا وسياسيا •

كانت انتخابات مجالس المراكز وبرلمانات المحافظات أكثر صعوبة ، فقد وجدت قوائم تمكن النخب فى كل من مكان انتخاب الحزب الديمقراطى الليبرالى وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى بجانب حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فجندت كل القوى المتاحة حتى آخر شىء موجود عندنا فى هذه المعركة • ورغم كل الجهود التى بذلت ، فلم يحصل الاتحاد الاشتراكى فى المتوسط الا على ما يقرب من نصف الأصوات ، فقد فاز بـ ٢٤٩ مقعدا من مجموع المقاعد وعددها ٥١٩ مقعدا ، وساعدت « المنظمات الجماهيرية » فى هذا الموقف فقد كان عدد نوابها ١٦ ، منهم ١٢ من أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، وبهذا ارتفع عدد أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمانى الى ٢٦١ عضوا ، ففاز بأغلبية ضئيلة فى برلمانات المحافظات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

ينص قانون الانتخابات على اجراء انتخابات المجالس المحلية كل

---

(١) « موقف الاتحاد الاشتراكى الألمانى من مسألة الحدود » — بيان مجلس الحزب الأعلى للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى جريدة « ألمانيا الجديدة » فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ •

سنتين . أى يجب أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٨ م ، وانتخاب مجلس المراكز وبرلمانات المحافظات بعد ثلاث سنوات ، أى يجب أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٩ م .

قال القياديون المتفائلون بعد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ : « سيكون الوضع أحسن فى الانتخابات القادمة » ولكن لم تجر انتخابات بعد ذلك .

كانت انتخابات أكتوبر سنة ١٩٤٦ أول ، وآخر انتخابات تجرى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، يوضع فيها الناخب أمام اختيار سياسى ، اذ لم يوجد منذ ذلك التاريخ سوى قائمة موحدة .

* * *

الهزيمة فى برلين

كان واضحا لنا أن انتخابات المجالس المحلية وبرلمانات المحافظات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى كانت مقدمة تمهيدية ، وسيكون القرار الحاسم فى انتخابات برلين التى ستجرى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م .

كان الرأى السائد فى « منزل الوحدة » أنهم متأكدون من النصر .

أصدر « فيلهيلم بيك » بيانا فى ٢٦ سبتمبر ، كان من الممكن أن يكون له أثر فى حصول الاتحاد الاشتراكى الألمانى على أغلبية الأصوات ، أو على أقل تقدير سيتقدم كل الأحزاب الأخرى .

لم يكن هناك تفاؤل فى هيئة قيادة الاتحاد الاشتراكى الألمانى : فقد حصلت على صورة واضحة — بدون رتوش — للموقف ، عن طريق المناقشات العديدة مع « فالديمار شميت » عندنا فى المسكن . كذلك استعملت المواصلات العامة فى الأسابيع السابقة على اجراء الانتخابات ، وردت المطاعم والمحلات فى مناطق غرب برلين ، وأنصت الى أحاديث كثيرة ، فاندهشت جدا من التعارض الشديد بين الرأى العام وبين التفاؤل الذى ساد « منزل الوحدة » !

اقترح أحد القياديين أثناء لقاء أخوى ودى للقياديين المسئولين فى برلين : « نريد أن نرى تقدير الموقف الصحيح ، فما رأيكم فى أن يكتب كل واحد منا على ورقة نسبة الأصوات التى سيحصل عليها كل حزب حسب تقديره للموقف » ؟

وعندما قرأت عليهم ورقتى ، اندهشوا جميعا : فقد كتبت فيها ٣٠٪ لحزب الديمقراطى الاشتراكى و ٣٠٪ لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، و ٢٥٪ لحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، و ١٥ ٪ للحزب الديمقراطى الليبرالى • كان تقديرى لما سيحصل عليه الاتحاد الاشتراكى من نسبة الأصوات أكثر تشاؤما من تقديرات كل الحاضرين ، رغم أنها كانت لا تزال بعيدة عن الوضع الحقيقى •

قضيت مساء ٢٠ وليلة ٢١ أكتوبر فى مقر هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الجديدة » ، وتوالت التقارير فى هذه الليلة ، فاستطعنا الحصول على صورة للوضع أولا بأول •

وتوقعا للانتصار فى الانتخابات ، وضعت مكبرات الصوت على مبنى هيئة تحرير الجريدة من الخارج لنتمكن من اذاعة النتائج فور وصولها على الجماهير التى تجمعت خارج المبنى •

كانت نتائج الانتخابات الأولى التى وصلتنا من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات فى أحياء برلين الشرقية غير مشجعة لنا ، فقد كان متوسطها كما توقعت سابقا ٣٠ ٪ للاتحاد الاشتراكى الألمانى • ثم جاءت الأخبار السيئة واحدا بعد الآخر ، فازدادت مظاهر الاكتئاب على وجوهنا شيئا فشيئا ، وشد المذيع — الذى كان مكلفا باذاعة النتائج على الجماهير المنتظرة خارج المبنى — شعر رأسه ، فبحث يائسا بين الأخبار المتدفقة عن خبر حسن بالنسبة للاتحاد الاشتراكى الألمانى • فحاول انقاذ نفسه بتكرار اذاعة النتائج الأولى التى جاءت من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات فى أحياء برلين الشرقية ولكنه عندما استمرت صيحات الاحتجاج فى الخارج فى ازدياد مطرد : « سمعنا هذا من قبل ، نريد أن نعرف الجديد » ، قال أحد الأعضاء الكبار فى هيئة التحرير : « كفوا عن هذا الهراء وأوقفوا هذه الاذاعة الحمقاء » •

حاولنا تهدئة أنفسنا ، فقال واحد : سترفعنا الأحياء العمالية ، « فريدريش — أنهالت » و « فيدينج » و « ليشتينبرج » و « نويكولن » ولكنى لم أعد أعتقد فى هذا •

كان الموقف يزداد سوءا فى كل ربع ساعة ، وأظهر مجموع التقارير الأولى هزيمة منكرة للاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ونصرا ساحقا للحزب الذى سميناه « نادى مستشفى تسيليندورف » ، وفى الأسبوع الأخير سميناه « فضلات الحزب الديمقراطى الاشتراكى » •

أصبح « فضلات الحزب الديمقراطى الاشتراكى » فى غضون فترة قصيرة اسوى حزب فى برلين بلا منازع • ازداد الصمت فى حجرة هيئة التحرير ، فسارت الأخبار فى طريقها فى صمت عبر مراحل تجهيزها فى الجريده ، ولم يقطع الصمت الا نداء آخير يائس : « ماذا ينبغى أن أكتب » ؟

لم أنتظر النتائج النهائية ، بل ذهبت الى قيادة المنطقة فى « بانكوف » فرأيت بعض القياديين فى المنطقة متحلقين حول جهاز الراديو ، ولكنهم حيونى ببشاشة دون انطق بكلمة • كان هناك كثير من العاملين فى اللجنة المركزية لذين يقيمون فى حى « بانكوف » ، ولكنى كنت الوحيد الذى ذهب اليهم فى هذا المساء • قال لى أحد الحاضرين همسا :

« انتهى الراديو توا من اذاعة مجمل النتائج التى ظهرت فى كل مناطق برلين ، فكان الاتحاد الاشتراكى فى المرتبة الثالثة ، حتى بعد حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » • وكان الآخرون صامتون ، لم ينطقوا بكلمة واحدة •

سمعت فى الصباح الباكر النتائج النهائية : حصل الحزب الديمقراطى الاشتراكى على ٤٨ر٧٪ وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى على ٢٢ر١٪ وحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى على ١٩ر٨٪ والحزب الديمقراطى الليبرالى على ٩ر٤٪ من مجموع الأصوات •

كان سبب الهزيمة واضحا لى ، كما كان واضحا لكثير من القياديين ، فنحن معروفون عند الشعب بأننا « حزب روسى » • نعم •• لقد رسمنا طريقا ألمانيا مستقلا الى الاشتراكية ، ولكن لم يكن هذا معروفا ومفهوما الا فى محيط صغير ضيق جدا بين أفراد الشعب • ومن الناحية العملية ، فقد أيدنا ودافعنا عن كل اجراءات سلطة الاحتلال السوفييتى ، وحصلنا منهم على أوراق ، وعربات ، ومنازل ، ومواد تموينية خاصة • وأقام قباديونا الكبار فى « فيلات » كبيرة ، وانعزلوا بعيدا عن بقية الشعب ، تحرسهم قوات الجيش السوفييتى ، وركبوا عربات يحمل بعضها الأرقام السوفييتية •

كانت نتيجة الانتخابات منطقية لارتباطنا بسلطة الاحتلال السوفييتى ، فلم يصوت سكان برلين ضدنا — هكذا قلت لنفسى — لأنهم لا يؤيدون الاشتراكية ، وهم لم يصوتوا أيضا ضد تضحية « الأعضاء بالنفس والنفيس » ، ولا ضد القياديين الذين فعلوا — بقدر ما أمكنهم —

كل شيء ؛ ليخففوا أحوال الضيق المعيشية على الشعب ، صوتوا ضدنا لأنهم — وللأسف لم يكن هذا صوابا — اعتبرونا حزبا مرتبطا بالاتحاد السوفييتى •

ولم يكن ينقذنا سوى شيء واحد : فصل واضح من سلطة الاحتلال السوفييتى ، والاقرار الواضح بارادة العمل ، كحزب اشتراكى ألمانى مستقل • ربما — هكذا فكرت فى تلك الليلة — تدفع هزيمة انتخابات أكتوبر الى اتخاذ هذه الخطوة ، فنصل بهذا الى نهاية أخيرة ايجابية • رجوت أن يشرح زعماء الحزب أسباب الهزيمة الحقيقية بأسلوب مفتوح ، ويتخذون القرارات اللازمة لذلك •

تألق هذا العنوان فى عدد جريدة « ألمانيا الجديدة » الصادر فى صباح ٢٢ أكتوبر : « نصر انتخابى ساحق للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى المنطقة السوفييتية » •

بعد نتائج الانتخابات فى المنطقة السوفييتية — هكذا كانت المبالغة فى التفسير — جاء أخيرا ما كان ينتظره كل القراء فى هذا الصباح : التعقيب على الانتخابات فى برلين « النتائج الكلية فى برلين •• تعكس الاهتزاز السياسى عند جزء كبير من طبقات المنتخبين الوطنية الصغيرة • لم يعبر عن المفهوم السياسى لانتخابات برلين بوضوح كاف • فلم يأت القرار ملبيا رغبة الاتحاد الاشتراكى السياسية والاقتصادية ، ولا مطابقا للجهود ؛ التى بذلت حتى الآن فى التعمير والبناء ، بل نتيجة لحملة الصحافة الرجعية ، التى شنت ضد الاتحاد الاشتراكى أسابيع عدة ؛ واعتراضاتها التى سارت بجانب الآراء السياسية الكبرى » •

لم تذكر كلمة واحدة عن أنه لم يصوت المنتخب الوطنى فقط ضد الاتحاد الاشتراكى ؛ مع الحزب الاشتراكى الديمقراطى ؛ بل أيضا الغالبية المطلقة من عمال الصناعة فى برلين ، ولم يصدر أى بيان عن أسباب استطاعة الصحافة الغربية التأثير على الناخب بهذه الدرجة الكبيرة ؛ ولم تظهر أى اشارة بسيطة الى أن هذه الهزيمة ، يمكن أن يكون لها علاقة بارتباط الاتحاد الاشتراكى الألمانى بالاتحاد السوفييتى ، وبسلطة الاحتلال السوفييتى •

ألقيت الجريدة من يدى خائب الرجاء ، بل يائسا ؛ فأنا أعرف أن

رئيس هيئة التحرير — صديقى « ليكس ايندى »(١) الذى أقدره كثيرا — لا يملك من الأمر شيئا ، فقد عبر فى مقاله عن التعليمات التى وصلته من الجهات العليا • كذلك لم يحلل بيان الحزب الموقف ، ولا وضح الأسباب الحقيقية للهزيمة •

وبعد أيام قليلة تلقيت دعوة من أحد كبار الضباط فى الادارة السياسية للقيادة العسكرية السوفييتية ، وهو أحد أولئك القياديين السياسيين الذين أعدوا ثقافيا أثناء الحرب اعدادا كاملا ، وتعرفت عليهم فى أوائل مايو سنة ١٩٤٥ فى « بروخميلى » •

لم يكن قد مضى على الهزيمة فى برلين سوى أيام قليلة ، ولكنه تحدث بعدم اهتمام ، كما لو كان قد مضى على ذلك زمنا طويلا • حيث قال بنغمة كسولة : « لقد قضيت الأيام الأخيرة فى تحليل نتائج الانتخابات ، فهى مثيرة للاهتمام بدرجة كبيرة جدا » •

لم أدر ماذا أقول تعقيبا على هذا الكلام ، فصمت متوقعا أن يقول هو شيئا عن سياسة الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ولكنه قال شيئا آخر : « هل تعلم أيها الرفيق « ليونهارد » أنه لا يمكن الوصول الى تحليل حقيقى ، الا اذا كان هناك حزب خامس فى الانتخابات » !

— « حزب خامس » ؟

— « نعم •• حزب خامس — ولنقل حزب الـ« تليغراف » — فالـ ٤٨ر٧٪ التى حصل عليها الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ليسوا كلهم أصواتا ديمقراطية اشتراكية أصيلة ، فهم انتخبوا الديمقراطيين ، لأن التليغراف قال لهم ذلك ، وأحب أن أعرف بالضبط ، كم عدد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكم عدد أنصار حزب « التليغراف » •

لم يكن هذا ما توقعته من ضابط سوفييتى كبير بعد يومين من هزيمة الاتحاد الاشتراكى الساحقة ، ولكن أفكاره أثارت اهتمامى ، بل كانت أكثر اهتماما من البيان الرسمى الذى أصدرته زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت •

---

(١) كان « ليكس ايندى » محررا عبقريا ممتازا ، أصدر قبل عام ١٩٣٣ « البريد الأحمر » وأثناء نفيه فى باريس « الهجوم المضاد » — طرد من الحزب مع « باول ميركر » وآخرين من « المنفيين الغربيين » فى قضية « نويل فيلد »، لأنهم قدموا مساعدات على نطاق واسع للعدو الطبقى ، ذهب « ليكس ايندى » بعد طرده من الحزب الى مدينة « أوى » ومات هناك كمدا بعد أشهر قليلة •

— « لاحظ أيها الرفيق « ليونهارد » أنك مندهش لأنى لم آخذ الأمر مأخذ المأساة ، ألا ترى ! لقد توقعت هذه النتيجة بالضبط ، فلماذا أتعجب الآن » ؟

ثم تحول الحديث الى أشياء أخرى • هل دعانى حقيقة ليقول لى عن تفكيره فى حزب التليغراف ؟ •

وعندما هممت بالانصراف قال لى مبتسما : « آه •• أريد أن أسألك عن شىء » •

والآن يجب أن يأتى الشىء الحاسم •

— « فكرت فى هذه الأيام مع بعض الأصدقاء فى مسألة هامة • تصور أيها الرفيق « ليونهارد » ! لو جرت انتخابات فى برلين وفى المنطقة السوفييتية ، لا تخضع لأى تأثير اطلاقا — يعنى بدون دعاية ، وبدون توزيع منشورات خاصة — وسيكون السؤال المطروح هو : هل تؤيد الغرب أم الشرق ؟ ماذا ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لتقديرك الشخصى » ؟

ترددت قليلا — فلاحظ انضباط الذكى ذلك •

— « الآن •• الآن أيها الرفيق « ليونهرد » لا تردد هنا ، فنحن وحدنا ويهمنى جدا معرفة رأيك الحقيقى » •

— « حسنا •• هاهو ذا رأيى الحقيقى : ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لفهمى الحالى كما يلى : من ١٥ — ٢٠ ٪ للشرق ، ومن ٨٠ — ٨٥ ٪ للغرب » • لم يتقبل اجابتى بهدوء فقط ، بل بابتسامة اخوة وصداقة قائلا :

« عندك احساس صادق بأصوات الجماهير ، لقد توصلنا الى نفس النتيجة أيضا » •

* * *

تعليم •• تعليم •• تعليم

احتل قسمنا فجأة مركز الاهتمام بعد أيام قليلة من هذا الحديث ، فقد أصبح مركز الثقل فى لعمل السياسى موضوعا الآن على التعليم •

أظهرت الانتخابات أن مواجهة الأعداء باغراق الجماهير بملايين المنشورات لا توصل الى الهدف ، فبدأ الآن التراجع المؤقت ، لتنظيم القوى وتدعيمها ، وكان التعليم المكثف ضروريا فى هذه الخطوة •

أعلن فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م قرار خاص من زعامة الحزب ،

يتعلق فقط بالنشاط التعليمى ، اذ استنكر أن « النشاط فى حقل التعليم أهمل فى الاشهر الأخيره » ، وان القرارات التى صدرت حتى اليوم فى هذا الموضوع « لم تنفذ بطريقة مرضية » • ثم تلت التعليمات الحاسمة : « ونظرا لهذا الوضع ، فان لجنة رئاسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ترى أن أهم واجبات الحزب كلها الاهتمام من الآن فصاعدا بالنشاط الثقافى والتعليمى ، بطريقة مكثفة » •

وكان من المسلم به أن حضور الدروس الثقافية المسائية كان « واجبا على كل عضو فى الحزب » • فبدأت حملة دعاية منظمة فى كل صحافة الحزب للمواظبة على حضور هذه الدروس •

وفرض على هيئة زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى فى المقاطعات الستة انشاء مدارس على نظام المدارس الداخلية فى جميع المراكز المائة والثلاثين المنتشرة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، حيث يدرس فى المدرسة الواحدة عدد يتراوح بين ٦٠ ، ٨٠ دارسا — حسب حجم المركز — لمدة أسبوعين • وامتدت مدة الدورة الدراسية فى مدارس المقاطعات الست من أربعة أسابيع الى ثلاثة أشهر •

لم يستطع قسمنا — الذى زحزح الى الصف الأخير فى الأشهر الأخيرة قبل الانتخابات — انقاذ نفسه من الاجتماعات المتعددة ، والتعليمات الكثيرة والواجبات التى كلف بها •

جاء الينا « جروتيفول » فى نفس اليوم الذى أعلن فيه قرار التعليم ، لكى يشرح لنا العمل بالتفصيل : « لقد وضعنا خطة تقضى بأن نعلم فى مدى عام واحد ١٨٠٫٠٠٠ من أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى مدارس المراكز فى دورات دراسية ، تستغرق الواحدة ١٤ يوما ، ويجب أن ينفذ هذا ، وسينفذ » •

تعليم ١٨٠٫٠٠٠ فى عام واحد ! — لقد تعودت على بعض الأشياء ، ولكن ظهر لى أن هذا من الصعب تنفيذه • هل تكفى مدارس المراكز المزمع فتحها ؟

بينما كان « جروتيفول » يواصل حديثه ، قمت بعملية ، حسابية : ١٣٠ مدرسة بمتوسط ٦٠ دارسا فى ١٤ يوما مدة الدورة الواحدة ، اذن نحتاج الى ٢٤ دورة دراسية فى العام •

كانت عملية الحساب بسيطة ، لو نفذ هذا الاقتراح مائة فى المائة ، لتخرج ٨٠٠ ر ١٨٧ دارس •

كانت الكلمة الأخيرة : « الى العمل » !

سافر سكرتاريو المدارس الى المراكز ، واستولى على مبانى ، ونظمت عملية توريد المواد الغذائية ، ثم وصلت الأخبار الأولى عن فتح مدارس المراكز بعد أسبوعين .

كنا فى أثناء ذلك مشغولين بتجهيز كتب تعليم سياسية لـ ١٨٠٫٠٠٠ دارسا ، وهم الذين ينبغى أن يثقفوا فى غضون الاثنى عشر شهرا القادمة .

لم نعرف يوم العمل العادى ، فقد كنا نعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد عشرة أيام — أى فى الميعاد المحدد — انتهى العمل من مسودة الكتاب التعليمى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وراجعه « أولسنر » و « آكارمان » ثم أرسل الى دار « ديتس » للنشر ، مصحوبا بالتعليمات الآتية :

« يجب التوقف عن الاستمرار فى طبع الكتب والمذكرات ، التى ابتدأ العمل فى طبعها ولم تكمل بعد ؛ فلابد من الانتهاء من طبع الكتاب التعليمى لحزب الاتحاد الاشتراكى فى الميعاد المحدد ، مهما كانت الظروف » .

اجتمعت لجنة الحزب العليا بعد ثلاثة أشهر ، وأصدرت بيانا آخر عن التعليم : « ترى اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى الألمانى بارتياح أن تنفيذ القرار الصادر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م بشأن العمل الثقافى ، قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام » .

امتدت فترة الدراسة فى مدارس المقاطعات الى ثلاثة أشهر ، وفتحت مدارس فى كل المراكز تقريبا ، وفى ديسمبر سنة ١٩٤٦ تم اعداد المدرسين الذين سيدرسون فى هذه المدارس ، وكان مفروضا على كل مدارس المراكز الالتزام بكتابنا التعليمى ، وكلفت هيئة تحرير الجريدة من جديد بتكثيف حملة الدعاية لعمل الثقافى ومساندتها أكثر من ذى قبل . وكلفت لجان الاتحاد الاشتراكى فى المقاطعات الست بتنظيم حلقات دراسية — بجانب مدارس المراكز ، ومدارس المقاطعات — على مستوى عال لاعداد القياديين من أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

وصل تقرير عن الجهد المبذول فى هذا المجال الى قسمنا فى منتصف ابريل سنة ١٩٤٧ فاستطاع « أولسنر » أن يذكر لنا أعدادا ضخمة ،

فقد طبع من كراستنا التعليمية أكثر من ٢ مليون نسخة فى طبعة واحدة ، ودرست مدارسنا فى المقاطعات الستة كل الـ ٢٤ موضوعا المحددة فى الخطة ، فخرجت أعداد كبيرة من المدرسين للتدريس فى مدارس المركز • ونظم معهد الحزب العالى المسمى « معهد كارل ماركس » دورات دراسية مدة الواحدة ستة أشهر لاعداد قياديى الحزب من الطبقة العاليـــة ، وانتهت الاستعدادات لتثقيف قوى متخصصة فى النواحى السياسية العلمية • وستبدأ فى الأسابيع القادمة دورة دراسية مدتها سنتين فى معهد الحزب العالى •

ورغم كل هذه الجهود التى بذلت ، فلم يتركنا « أولسنر » نلتقط أنفاسنا حين قال : « نجاحنا ناقص وضئيل ، اذا قارناه بما يطلبه الحزب اليوم منا » •

لم تكن هذه الكلمة عشوائية ، فقد ازداد نشاط العمل فى الحقل الثقافى منذ أوائل عام ١٩٤٧ م ، واتسعت مجالاته ، ولم تخلق المسائل المـــالية أى عقبة ، فقد هيئت كل الاحتياجات بسخاء • ولم يلتفت الى القياديين فى مجال التعليم حتى نفذت الخطة الدراسية الى آخر حرف ، فتخرج أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ دارس فى مدارس المراكز ، ولكن بذل أيضا أكثر من ألف من المشتركين فى مدارس المحافظات مجهودا جبارا •

ظهرت نتيجة هذا العمل بسرعة ، فكلما زرت بصفة مستمرة مدرسة المقاطعة فى برلين و « براندينبرج » لالقاء محاضرات ، كنت أحس بالتقدم فى المستوى السياسى •

وهكذا كون حزب الاتحاد الاشتراكى نفسه خطوة خطوة ، دون أن يؤثر فيه الفشل أو الهزيمة فى الانتخابات ، وهيأ صابرا جيلا من القياديين المثقفين الخاضعين لتعليمات الجهات العليا •

* * *

بدء التحول الى السوفييت

كلما ازداد نشاطى فى العمل الثقافى ، وفرحى بالنجاح فى هذا المجال ، كلما اشتد قلقى تجاه سياسة حزب الاتحاد الاشتراكى بعد الهزيمة فى انتخابات ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م ، فلم يسلك الطريق الى تحقيق استقلال أوسع ، بل سار فى طريق معاكس : فقد قوى الارتباط بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى •

أقام الاتحاد الاشتراكى احتفالا ضخما فى ٧ نوفمبر ، بمناسبة يوم العيد الرسمى السوفييتى . وعلى العكس مما حدث فى عام ١٩٤٥ م فقد نشر فى هذه المناسبة النص الحرفى للخطب التى ألقاها الزعماء السوفييت .

كذلك بولغ فى الاحتفال بيوم الدستور السوفييتى فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ م ، ونشر فى ٢١ ديسمبر — وهو يوم عيد ميلاد « ستالين » السابع والستين — مقال طويل ، كتبه « فيلهيلم بيك » ، ومما جاء فيه :

« ان بعد النظر الحاد عند الزعيم السوفييتى ، يرى الشعب الألمانى الطريق أيضا » .

ثم جاءت الخطوة التالية فى منتصف يناير سنة ١٩٤٧ م فقد استدعى المارشال « سوكولوفسكى » ووكلاؤه ، وكذلك رئيس الادارة السياسية العقيد « تولبانوف » ، استدعوا زعماء الاتحاد الاشتراكى : « بيك » و « جروتيفول » و « أولبريخت » ، و « فيخنر » لاجراء محادثة معهم ، ثم أعلنت نتيجة تلك المحادثة فى ١٦ يناير :

« بناء على طلب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد توقفت عملية فك وازالة ماكينات المصانع نهائيا ، اذ بعد أن أزيلت آلات الانتاج الحربى الهامة ، فلن تستمر عملية فك وازالة الآلات » .

وكما كان هذا الوعد مفرحا لنا جدا — غير أنه تأكد فيما بعد ، أنهم لم ينفذوا هذا الوعد — بدا مقلقا أيضا ، ووضح لى — ولبعض القياديين الآخرين — أن زعامة حزبنا أكدت ارتباطها الوثيق بسلطة الاحتلال أكثر وأكثر بواسطة خطاب الشكر البالغ الخنوع والخضوع .

ثم صدر بيان رسمى من « فيلهيلم بيك » وبعده بيان من « أولبريخت » ، وأخيرا خطاب شكر جماعى أيضا من جميع أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى الألمانى الى سلطة الاحتلال السوفييتى . قال لى أحد القياديين :

« أنا مسرور بتوقف فك آلات المصانع ، ولكن لا أدرى بالضبط ما اذا كان مفيدا لحزبنا أن يبدو راجيا تساكرا بهذه الطريقة الرخيصة » .

وكان جوابى :

« أرجو أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى نلعب فيها هذا الدور » .

كانت المرة الأولى ، ولكنها لم تكن بأى حال من الأحوال المرة الأخيرة . فقد أصبحت هذه الطريقة من العادات المألوفة ، كان زعماء

« رابطة نقابات العمال الحرة » عند « سولوكوفسكى » فى نهاية يناير سنة ١٩٤٧ ، فاستجيب للرجاء مرة أخرى ، فتبع ذلك خطاب شكر ملىء بعبارات الخنوع والخضوع • ثم جاء دور « شباب ألمانيا الحر » • وأخيرا بولغ فى الشكر — حتى للتحسن البسيط فى امدادات الخضار ، اذ جاء ذلك عقب مشاورة من المشاورات — فى بيانات وخطابات الاتحاد الاشتراكى ، وظهر الارتباط — الذى كان يزداد ويقوى يوما بعد يوم — بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى فى أحداث أخرى •

ففى أوائل عام ١٩٤٧ م تنازل الاتحاد الاشتراكى الألمانى عن موقفه المستقل فى مسألة الحدود الشرقية لألمانيا ، فخلافا لما أعلن رسميا قبل انتخابات المقاطعات فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ م أعلن « فرانس داليم » بتكليف من زعامة الاتحاد الاشتراكى : « ضياع المناطق الشرقية صعب على الشعب الألمانى ، ولكن لابد للحياة من الاستمرار »(١) •

لم تزل دعوانا ، الى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ، خط الحزب الرسمى ، ولكن هل ذهب كل شىء هباء بواسطة تمجيد « ستالين » وبرقيات التحية والتهانى الى الاتحاد السوفييتى ، والخضوع فى الرجاء والمشاورات وخطابات الشكر الى الادارة السوفييتية ، والتنازل عن الرأى المستقل فى مسألة الحدود الشرقية ؟

ازداد شكى شيئا فشيئا ، وبعد أسابيع قليلة ، سيطر ثوران عنيف على القياديين الكبار — وليس على الكبار فقط — فقد كان حديث الساعة هو ما سمى بمؤتمر « ميونيخ » ، فقد دعا رئيس وزراء مقاطعة « بايرن » الى عقد مؤتمر لكل رؤساء وزارات المقاطعات الألمانية فى أوائل يونيو سنة ١٩٤٧ ودعى اليه أيضا رؤساء وزارات المقاطعات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

ثم صدر الرد الرسمى من المنطقة السوفييتية عقب توجيه الدعوة مباشرة : « لا ينبغى أن يعقد المؤتمر فى « ميونيخ » بل فى برلين ، وينبغى أن يشترك فيه أيضا ممثلون عن الأحزاب والنقابات العمالية » • فرفض الجانب الغربى هذا الاقتراح ، فاختلفت الآراء فى أوساط قياديى حزب الاتحاد الاشتراكى :

---

(١) « فرانس داليم » فى مسألة الحدود الشرقية ، جريدة « ألمانيا الجديدة » ، ١٩٤٧ •

« يستوى الأمر ، أين يعقد ، ومن يحضره ؟ فالمهم أن ينعقد المؤتمر ، ويجب ان يرسل ممثلونا لحضوره » • كان هذا أحد الرأيين ، وكنت من بين الموافقين عليه • أما الرأى الآخر فهو :

« اذا لم يوافقوا على مطالبنا ، فينبغى ألا نذهب الى هناك » •

انتظرت متشوقا اجابة زعامة الحزب ، فسررت عندما أعلن أن وفدا شرقيا سيسافر الى المؤتمر ، وهو يتكون من الدكتور « فريدريش » (زاكسين) والدكتور « هوبنر » (زاكسين — أنهالت) و « هوكير » (ميكلينبرج) ، غير أن فرحتى تبخرت عندما علمت أنه بسبب مرض رئيس وزراء مقاطعة « زاكسين » الدكتور « فريدريش » ، فقد اختير للسفر الى « ميونيخ » نائبه « كورت فيشر » ، فانى أعرف « فيشر » من أيام اقامتنا فى موسكو • وقلت لنفسى آنذاك : لو ملك « فيشر » السلطة ذات يوم فى يده ، فلا أحب أن أكون من رعاياه •

بدا لى مرض « فريدريش » فى هذا الوقت بالذات مثيرا للتكهنات ولم أؤمن فى المشتركين الآخرين — وكان اعلان حضور « فيشر » المؤتمر نوعا من الرقابة عليهم — خيرا •

فشل المؤتمر بعد يومين ، ونشر نبأ عودة كل الألمانيين الى المنطقة الشرقية فى الجريدة الناطقة بلسان الحزب بالعناوين الضخمة • وظهر أن الممثلين الشرقيين سافروا الى « ميونيخ » بتعليمات صارمة ، تقضى بأن يطالبوا بأن تكون النقطة الأولى فى جدول الأعمال ، هى بحث تكوين ادارة ألمانية مركزية ، تختارها الأحزاب الديمقراطية ونقابات العمال لتكون نواة الدولة الألمانية الموحدة فرفض الممثلون الغربيون ذلك ، فانسحب ممثلو المنطقة السوفييتية فورا من المؤتمر وعادوا الى برلين •

كانت حجة عودة رؤساء وزراء المقاطعات فى المنطقة السوفييتية :

« أن المشرفين على المؤتمر استخدموا أزمة الشعب الألمانى الاقتصادية استخداما سيئا ليصلوا الى أهدافهم السيئة ، التى رسموها لأنفسهم ، وأريد استخدام ممثلى المنطقة الشرقية ، لخدمة هذه المجموعة من الناس ، أعداء الشعب » •

ضاعت الفرصة الكبيرة فى الوصول الى تفاهم عن طريق مؤتمر مشترك ، يضم رؤساء وزراء مقاطعات المنطقة الغربية ورؤساء وزراء مقاطعات المنطقة السوفييتية •

ذهبت فى نفس اليوم الى « منزل الوحدة » ، فقال لى أحد العاملين

هناك : « أنا لم أعد أفهم شيئا اطلاقا ، فقد ضاعت الفرصة الكبيرة لتوحيد ألمانيا ، ولكن « أولبريخت » مسرور جدا ، سرورا من النادر أن يحدث له • ويتحدث هو وبعض القياديين عن نصر كبير ، ويظهر أنهم مسرورون لفشل المؤتمر » • وتأكد هذا الظن عندى بعد دقائق قليلة ، فقد قابلت « جيبتنر » الذى أعرفه من أيام لعمل فى « مجموعة أولبريخت » • وكان فى هذه اللحظة رئيس السكرتارية المركزية • فقال وعلامات السرور تلمع على وجهه :

« لقد وصلنا الى الهدف ، كنا محظوظين عندما سارت الأمور على هذا النحو ، ولكن كانت هناك بعض الصعوبات فى سكرتارية اللجنة المركزية » •

— « صعوبات » ؟

— « أردنا فى بادىء الأمر عدم السفر اطلاقا الى المؤتمر ، ولكن ألح على السفر الديمقراطيون الاشتراكيون ، وحتى بعض رفقائنا • وبناء على ذلك تقرر سلوك هذا الطريق : أظهرنا النية الحسنة ، ولكن فى نفس الوقت لم يقم المؤتمر على قدميه » •

لم أقل شيئا ، فقد واصل « جيبتنر » حديثه :

« تصور ماذا حدث ؟ لقد أشار « أولبريخت » فى الاجتماع الى أنه تحدث مع الأصدقاء السوفييت ، وأنهم أشاروا عليه بهذه النصيحة وعند ذلك وقف أحد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وأعلن ببساطة ساذجة أن مؤتمر « ميونيخ » مسألة ألمانية داخلية ، ولسنا بحاجة الى الأخذ بالاقتراح السوفييتى » •

هذا صحيح مائة فى المائة ، هكذا قلت لنفسى ، ولكنى لم أصرح به لـ« جيبتنر » •

هز « جيبتنر » رأسه متأسفا :

« تصور يا « فولف جانج » أن هذا الغبى يجلس معنا فى السكرتارية المركزية ! وأننا ينبغى أن نقود الحزب مع أمثال هؤلاء الناس ! » •

— « ثم ماذا حدث » ؟

— « أخذت الأصوات » •

فقلت لنفسى : يا للأسف •• ولكنى ارتعبت فى نفس الوقت ، لأن معارضتى قطعت شوطا بعيدا •

وعندما عدت من « منزل الوحدة » الى مقر عملى فى مبنى الثقافة ،

فاجأنى « أولسنر » بقوله :

ـ « سننظم دروسا ثقافية فوق العادة عن مؤتمر « ميونيخ » ويجب علينا أن نجهز كراسة خاصة فورا ، ومن الأحسن أن تبدأ فيها الآن » •

فترددت •

ـ « ما الخبر » ؟

ـ « أتعلم يا « فريد » لست متمكنا من هذه المسألة ، وبالاضافة الى ذلك فهناك ـ بصراحة ـ أشياء غير واضحة تماما » •

ـ « ماذا •• ماذا •• هل أنت أيضا من أولئك الذين يصابون ازاء هذه المشاكل بمغص سياسى » ؟

مغص سياسى ـ كان هذا تعبيرا عن أمزجة وآراء القياديين التى لا تتفق مع الخط الرسمى •

فأجبته : « مهلا •• مهلا •• وعلى أى حال فلا أحب أن أكتب هذه الكراسة مهما كانت الظروف » •

ولحسن الحظ ، لم يستمر « أولسنر » فى حديثه عن المغص السياسى :

ـ « أنت محق يا « فولف جانج » ، فقد اشتغلت كثيرا فى الأيام الأخيرة ، فارتح قليلا ، فسوف أكتب بنفسى كراسة عن مؤتمر « ميونيخ »

فتنفست الصعداء ، ولكن عندما صعدت الى مكتبى ، أدركت وضعى الغريب : هل زاد الأمر عن حده ، حين ابتعدت ـ وأنا من العاملين فى قسم الثقافة والاعلام فى السكرتارية لمركزية ، والمحرر المسئول عن الكراسة الثقافية ـ عن الخط الحزبى : ازاء مسألة معينة ، وأننى لم أعد أستطيع الكتابة عن هذه المسألة باقتناع حقيقى ؟ •

* * *

رحلة قصيرة الى يوغسلافيا

اتصل بى قسم التدريب العسكرى تليفونيا بعد أيام قليلة من أحداث مؤتمر « ميونيخ » المحزنة :

ـ « يرغب المجلس المركزى للشبيبة الشعبية اليوغسلافية الاتصال بأحد القياديين الشبان ، وقد اقترحوا الاتصال بك ، وليس هناك مانع من جانبنا ، فهل توافق على السفر الى يوغسلافيا » ؟

ـ « طبعا » •

كدت أطير من الفرح •

كنت قبل أسابيع قليلة فى البرلمان الثانى « للشباب الألمانى الحر » الذى عقد فى « مايسين » ، فتعرفت هناك على مندوبين من يوغسلافيا ، قدموا الى « الشباب الألمانى الحر » هدية باسم « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » وعبروا عن أمنيتهم فى أن تأخذ منظمة « الشباب الألمانى الحر » مكانها كعضو كامل الحقوق فى « الرابطة العالمية للشباب الديمقراطى » •

كانت « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » منظمة الشباب الأجنبية الأولى ، التى احترمت منظمة « الشباب الألمانى الحر » وأرسلت اليها مندوبين ، وقوبل بيانها بتصفيق حاد • ولم يفكر أحد آنذاك أن هذه الخطبة الترحيبية التى عبر فيها عن الرغبة فى قبول منظمة « الشباب الألمانى الحر » فى « الرابطة العالمية » ستكون سببا فى توجيه اللوم الى « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » ، لأنها تصرفت فى أمور تتعلق بالرابطة العالمية دون مشاورة منظمة الشباب السوفييتية •

نشأت علاقة صداقة بينى وبين المندوبين اليوغسلافيين ، واقترحوا على فى « مايسين » أن أزورهم فى يوغسلافيا ، ولكنى لم أفكر طبعا أن ذلك سيتم بهذه السرعة •

كنت أجلس — بعد ما يقرب من مضى شهر واحد على هذا اللقاء — فرحا مع قيادى يوغسلافى فى عربة جميلة متجهين الى يوغسلافيا عن طريق « دريسدين » ، و « براغ » و « براتيسلافا » و « بودابست » ، كان ذلك فى آخر يوم من شهر يونيو سنة ١٩٤٧ م •

وصف كثير من الصحفيين الأجانب يوغسلافيا فى ذلك الوقت — قبل الانفصال عن موسكو بسنة واحدة — بأنها أقرب البلاد شبها بالاتحاد السوفييتى •

كان هذا الوصف صحيحا من الناحية الظاهرية ، فلم يكن التأميم قد قطع مثل هذه الخطوات فى أى بلد ديمقراطى شعبى مثل ما قطعه فى يوغسلافيا ، ونفذ الاصلاح الزراعى بدقة ، ولم تشكل الحياة العامة بواسطة سياسة الشيوعيين فى أى مكان خارج الاتحاد السوفييتى الا فى يوغسلافيا ، فلم توجد أى أحزاب سوى الحزب الشيوعى ، ولم ير المرء فى أى مكان آخر هذا العدد الكبير من الأعلام الحمراء • غير أن استنتاج المراسلين الأجانب جانب الحقيقة الجوهرية ، التى كانت ظاهرة على الأقل لصحفى أجنبى شيوعى •

وعند زيارتى الأولى للمجلس المركزى للشبيبة الشعبية اليوغسلافية فى بلغراد بدأت مناقشة هادئة ، وهامة حول « الشبيبة اليوغسلافية » و « الشباب الألمانى الحر » ، وحول نواحى الاتفاق والاختلاف بين كلتا المنظمتين ، فتوالت الأسئلة عن ألمانيا ، فاندهشت من كثرة معلومات هؤلاء الشبان فى هذا المجال • وقلت لنفسى :

وضع مختلف عن روسيا ، فهو أوسع حرية ، وأبعد اطلاقا للعنان ، وأكثر استقلالا • زرت فى الأيام التالية متحف حرب التحرير ، والمصانع ، ومدينة الجوالة بالقرب من بلغراد ، وهيئات تحرير الجرائد ، والقسم الألمانى فى اذاعة بلغراد • كانت هناك أشياء كثيرة هامة ، ولكنى لم أر شيئا •

فسألت المرافق :

— « كيف الوضع عندكم ؟ فلم أر حتى الآن مكتبا واحدا للحزب الشيوعى ، والناس لا يحملون هنا الشرة الحزبية » ؟

— « ليس عندنا مكاتب حزبية كبيرة ، وليس عندنا أيضا شارة حزبية أيها الرفيق « ليونهارد » ، اذ تقوم الجبهة الشعبية بالعمل السياسى ، وأنت بالتأكيد رأيت كثيرا من مكاتبها » •

— « ولكن كيف يعلن الحزب عن نفسه » ؟

فابتسم مرافقى ، ربما لم أكن أول زائر شيوعى أجنبى يسأل هذا السؤال •

— « لماذا ؟ •• لسنا فى حاجة الى شارة حزبية ، ولا الى مكاتب حزبية كبيرة ، لتثبيت السياسة المرسومة ، فكل أعضاء الحزب ، هم فى نفس الوقت أعضاء فى الجبهة الشعبية ، وكل أعضاء رابطة الشباب الشيوعى ، هم فى نفس الوقت أعضاء فى الشبيبة وهم يعلنون عن أنفسهم بواسطة أنهم يعملون بطريقة تظهرهم بأنهم أعلى النماذج وأكثر المجموعات نشاطا » •

أعجبتنى طريقتهم فقلت لنفسى :

انهم أذكى بكثير من الروسيين ، ومن الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

— « اذا كانت عندك رغبة ، فتستطيع أن تسافر غدا ، لتشاهد مشروع خط سكك حديد الشباب اليوغسلافى ، فسيأتى معنا أيضا اثنان من القياديين الشبان من بلغاريا » •

سمعت كثيرا عن خط السكك الحديدية — « شاماز — سارايفو »

الذى يقوم ببنائه الشباب اليوغسلافى • بدأ العمـل فى هذه المسافة التى تبلغ ٢٧٤ كيلو متر فى أول ابريل سنة ١٩٤٧ ، وقدر أن يعمل فيه ١٨٫٠٠٠ شاب على دفعات متعددة ، وكانت مدة عمل الفرقة هناك شهرين •

لم يكن لبناء هذا الخط الحديدى هدف اقتصادى فقط ، بل هدف سياسى أيضا فقد نشأ تعارف بين شباب القوميات المختلفة فى يوغسلافيا أثناء لعمـل المشترك ، واقتربوا من بعضهم ، وقد كان التعارض بين تلك القوميات عائقا للتطور فى هذا البلد • لم يشترك فى هذا العمل شباب من كل مناطق يوغسلافيا فقط ، بل أيضا شباب من ايطاليا ، وبولندا ، وبلغاريـا ، وبريطانيا العظمى وتشيكوسلوفاكيا ومن بلاد أخرى •

كذلك كانت مجموعتنا عالمية ، فقد كانت تتكون من اثنين من بلغاريا ، واثنين من ايطاليا ، ويونانى ، وانجليزى ، وكانوا يتجهون كلهم الى خط الشباب الحديدى كلما اقتربنا من الهدف المتجهين اليه — وهو مدينة : « زينيسا » عاصمة خط الشباب الحديدى — كلما رأينا مجموعات أكبر من الشباب ، يشتغلون فى بناء الخط وتركيب انقضبان • وكانت الحواجز الخشبية مزينة بالورود والأعلام المصنوعة من الورق الملون ، والشعارات •

وصلنا •• هاهى ذى « زينيسا » •• سرت مندهشا عبر هذه المدينة الفريدة من نوعها ، حيث يتزاحم فيها القديم والجديد ، والماضى والمستقبل • معظم سكانها من المسلمين ، فيلبس الرجال عمامة حمراء ، وترتدى النساء حجابا أسود ، وملابس بيضاء وزرقاء أو سمراء طويلة حتى القدمين • ثم علمت بعد أيام قليـلة أن اختيـار الألوان ليس عشوائيا ، اذ هى تبين عمر المرأة •

تعود السكان المسلمون على رؤية العاملين فى بناء الخط الحديدى ، فلم يعد يتطلع الرجال ذوو العمائم الحمراء ، والنساء ذوات الحجاب ، اذا مرت عليهم عربات الجيب الأمريكية الصنع ، أو سيارات النقل المزركشة بأعلام « الشبيبة الشعبية » المثلثة الحمراء ، حاملة الشباب وهو يغنى الى مقر عملهم •

كان مقر الرئاسة المركزية فى منزل جديد ، ويدور العمل فيها ليلا ونهارا ، لأن كل مناطق العمل على اتصال دائم بها ، فهى تمسك بكل الخيوط المتصلة بالعمل فى بناء الخط الحديدى •

يصل يوميا فرق شباب ، ووفود ، وصحفيون من كل بلاد العالم

تقريبا ، ويسمع المرء هناك لغات مختلفة ، الانجليزية ، والصربية ، والتشيشية ، والمجرية ، والفرنسية ، واليونانية ، والألمانية ، والعربية ، والعبرية ، فبجانب الشباب الأوروبى والأمريكى والاسترالى ، كان هناك أيضا الشباب العربى واليهودى الذين جاءوا من فلسطين وللتأكيد على معنى « الاخوة » و « الوحدة » فقد كونوا منهم فرقة واحدة ، وساد التفاهم بينهم بطريقة ممتازة .

دولة واحدة فقط هى التى لم تمثل : الاتحاد السوفييتى .

فسألت أحد أعضاء اللجنة القيادية : « لماذا لا يوجد هنا شباب سوفييتى » ؟

فأجاب : « ان الشباب السوفييتى مشغول ببناء بلده » .

لم تكن حجة مقنعة ! ألم يكن فى الامكان ارسال بضعة عشرات من الـ ١٠ مليون شاب الأعضاء فى منظمة الشباب السوفييتية ؟ من المؤكد أن هناك أسبابا أخرى ، ولم يكن من الصعب الكشف عنها .

أصبح واضحا لى بعد أيام قليلة أن الحماس والاعجاب هنا فى عام ١٩٤٧ م أكثر أصالة ، وأقوى ، والحرية أكثر ، والمناقشة أكثر بعدا عن النموذج المصبوب ، وحياة الشباب كلها أقل قيودا مما فى الاتحاد السوفييتى . فماذا يمكن أن يقول عضو منظمة الشباب السوفييتية ، اذا أقام هنا شهرين ؟

من الجائز أن يكون هذا هو السبب الحقيقى ...

تكرر فى المحاضرات السياسية ثلاث كلمات وهى : « بعد الاتحاد السوفييتى » ، فكلما تحدث اليوغسلافيون فى ذلك الوقت عن نجاحهم ، وضعوا هذه الكلمات الثلاث ، ليؤكدوا أنهم لا يفرقون اطلاقا فى مقارنة وضعهم بالاتحاد السوفييتى .

دار حديث فى طريق العودة الى بلغراد بينى وبين شباب يوغسلافى ، فسألتنى فتاة يوغسلافية ، والاهتمام يبدو فى عينيها : « أنت كنت فى الاتحاد السوفييتى ؟ لابد أن يكون هناك أشياء مدهشة » !

فقلت لها بلهجة الواثق : « عندكم فى يوغسلافيا أحسن » .

فنظر الشباب الى مندهشين .

— « لقد رأيت وشاهدت فى يوغسلافيا فى أسبوعين أشياء هى فى نظرى أحسن مما فى الاتحاد السوفييتى » .

حاولت أن أدلل لهم على ذلك بالأمثلة ، ولكنهم هزوا الرؤوس فقط .

— « لا .. لا أعتقد ذلك ، نحن متأخرون جدا عن الاتحاد السوفييتى » قالت فتاة يوغسلافيه ذلك ، ووافقها الاخرون على هذا الرأى .

ربما فهموا موقفى فهما صحيحا فيما بعد .

التقيت فى « بلغراد » لقاءا آخيرا مع كبار قادة « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » .

— « نحن مسرورون جدا على زيارتك لنا ، وعلى أننا وطدنا الاتصال الشخصى ، مع « الشباب الالمانى الحر » . الذى من المؤكد أنه لن ينفصل بعد اليوم . لقد رسمنا خطة اقامة مشروع كبير فى العام القادم ، ونريد أن ندعو أيضا فرقة من « الشبا ب الألمانى الحر » للاشتراك فى هذا العمل » .

— « متى سيكون ذلك تقريبا » ؟

— « لا نستطيع أن نقول الآن الموعد بالضبط ، ربما فى يونيو أو فى يوليو سنة ١٩٤٨ .... » .

وقبل أن أعود الى برلين بيوم واحد ، قابلت فى المساء قياديا حزبيا كبيرا ، كان محرر جريدة « بوربا » أثناء حرب التحرير ، وهو من أعضاء اللجنة المركزية للحزب . كان يتحدث الألمانية بطلاقة ، وعاش فى ألمانيا ، ولهذا فهو يعرف الظروف الألمانية ، ويعرف أيضا كثيرا من القياديين فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

سألته عددا من الأسئلة عن يوغسلافيا ، التى لم يجبنى أحد عليها ، وسرعان ما غرقنا فى مناقشة ، وفجأة وجه الى هذا السؤال :

— « قل لى .. ما الذى لم يعجبك هنا ؟ فاننا سنهتم جدا بمعرفة انطباعات الرفقاء الأجانب ، وخاصة نواحى النقد ، التى ينتقدوننا فيها » .

— « يوجد شىء واحد عندكم ، لا يعجبنى ، وأرى أنه غير صحيح » .

— « ماذا » ؟ ونظر الى باهتمام .

— « سمعت هنا محاضرات سياسية كثيرة ، كذلك ترجمت لى بعض الخطب الهامة والمقالات الصحفية ، فلاحظت أنكم تكررون القول بأنكم متخلفون جدا عن الاتحاد السوفييتى . لقد عشت عشر سنوات فى الاتحاد السوفييتى ، ومن هنا فلدى بعض امكانيات المقارنة . لا أوافقكم على هذا الرأى ، فالقياديون فى حزبكم أوسع ثقافة ، وأكثر تعليما فى النواحى السياسية من زملائهم فى الاتحاد السوفييتى ، وشبابكم أكثر

حماسا واهتماما من أعضاء منظمة الشباب السوفييتية • نعم •• ليس لحزبكم مبانى ضخمة ، ولكن له فى مقابل ذلك تأثير كبير فى الشعب ، وأنا مقتنع بأنكم تسلكون طريقا أحسن من طريق الاتحاد السوفييتى » •

وصلت الى النقطة الحساسة ، وألقيت كل ما كان عندى ، فتنفست بارتياح • نظر القيادى الى نظرة جد وتفكير ، ثم قال :

« من الأحسن ألا نتحدث فى هذا الموضوع » •

كنت مضطرا — للأسف — أن أسافر فى صباح اليوم التالى عائدا الى برلين ، الى عملى فى قسم الثقافة فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى •

بعثت الرحلة الى يوغسلافيا فى صيف ١٩٤٧ فى قوة جديدة ونشاطا جديدا ، ولكنها فى نفس الوقت زادت فى ترددى تجاه « المثال السوفييتى » •

* * *

مؤتمر الحزب الثانى

زرت بعد عودتى من يوغسلافيا صديقى « ميشا فولف » الذى أعرفه من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو معروف الآن باسم « ميخائيل شتورم » ويعمل معلقا فى قسم السياسة الخارجية فى اذاعة برلين الشرقية ، غير أن الأهم من هذا هو عمله كمراقب مسئول عن البرامج السياسية الهامة •

يسكن « ميشا » — الذى له علاقة وثيقة بالمراكز السوفييتية العليا فى شقة « لوكس » من ٥ حجرات ، فى شارع « بايرن » قريبة من مبنى الاذاعة فى برلين الغربية •

تزوج « ايمى شتينسر » تلك الفتاة الشقراء ذات العيون الزرقاء ، التى كانت بارعة فى تكوين المجالس الشعبية على الورق فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والتى نقلت كلامى الى قيادة المدرسة ، حيث تسبب ذلك فى ممارستى عملية النقد الذاتى الأولى •

— « رائع جدا أن حضرت فى هذه الساعة ، فتستطيع أن تسافر معنا حالا الى منزلنا الريفى » •

توقفنا بعد ساعة أمام « فيلا » جميلة بالقرب من بحيرة « جلينيك » كانت هذه « الفيلا » ملكا لـ« ميشا فولف » الذى يبلغ من العمر ٢٥ عاما •

وفى احدى مرات تجوالنا على شاطىء البحيرة قال « ميشا »

ببساطة : « فى الحقيقة ، يجب عليكم فى هذا الوقت أن تتنازلوا عن نظريتكم فى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ، « فالخط » سيتغير قريبا » .

فضحكت ، ثم قلت له :

— « يا « ميشا » .. وضعك وعبقريتك فى الاعتبار ، ولكنى أعرف أحسن عن الخط السياسى ، فأنا أعمل فى السكرتارية المركزية ، وأكتب الكراسات الثقافية ، التى هى المقياس لكل أعضاء وقياديى الحزب كله » .

أشعل « ميشا » لنفسه سيجارة ، وقال ضاحكا بسخرية :

— « توجد مراكز أعلى من سكرتاريتكم المركزية » .

يبدو أنه سر من التلفظ بكلمة « سكرتاريتكم المركزية » .

— « ولكن يا « ميشا » .. دعوى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية تحتوى فى أساسها على أهداف الاتحاد الاشتراكى الألمانى وتؤكدها » .

لم يتأثر « ميشا » بأسس وأهداف الاتحاد الاشتراكى الألمانى أدنى تأثر .

— « اذن .. يجب تغييرها » .

نظرت اليه مندهشا !

— « فولف جانج » .. أنا لا أقول ان ذلك لابد أن يحدث غدا ، فلا أريد سوى تنبيهك فى الوقت المناسب على بعض المتغيرات فقد تحدثنا حول هذا الموضوع مع « تولبانوف » فقال — طبعا كان ذلك فى محيط ضيق جدا — : ستختفى قريبا نظرية اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية . فلو كنت مكانك لتوقفت عن الكلام والكتابة فى هذا الموضوع ، فسيخفف ذلك من تحولى فى المستقبل » .

قال ذلك ببساطة ، دون أن يدرك أن هذا الرأى يحطم آمالا كبيرة عندى ، أما بالنسبة له فبدا أنه وسيلة فقط للوصول الى الهدف .

من تذكرت آنذاك ؟ عرفت : كان « ميشا » من نفس طراز الضابط السوفييتى الكبير ، الذى تحدث بنغمة بطيئة ، عن المخرج من انتخابات ٢٠ أكتوبر . كان طراز القيادى الذكى الهادىء الذى يقف فى الخلف يرقب كل ما يفكر فيه الرفقاء الآخرون تفكيرا جديا ، ويرقب ما يسعون لتحقيقه ولأى شىء يتحمسون . كان « ميشا » ألمانيا ، ولكن انتماءه الى الجنسية الألمانية لا يلعب دورا فى هذا المجال . كانت له نفس النغمة ،

ونفس الطريقة فى شعال السيجارة لنفسه ، ونفس الضحكة الساخرة الخفيفة على القياديين المتحمسين ، ونفس الجدية فى الدفاع عن الشعارات والتعليمات الجديدة • مثل الضابط السوفييتى ، الذى زرته فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٦ م •

ظهر أن « القياديين الواقفين فى الخلف » لا يتحمسون لشىء ، ويبدو من ظاهرهم أنهم لا يتخلون أيضا عن هدوئهم . فقد حصروا أنفسهم فى دراسة الخطوة الجديدة بحذر واحتراس ، ثم يعطون توجيهاتهم للقياديين الكبار ، الذين يتحدثون فى المؤتمرات الكبيرة فى العالم ، والذين يبحثون بهذا عن المتحمسين ، ويكتبون المقالات الحماسية •

تقرر أن يبدأ مؤتمر الحزب الثانى للاتحاد الاشتراكى الألمانى بعد أيام قليلة فاذا كان « ميشا » على حق ، فسوف تقلل زعامة الحزب من الكلام عن الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية ، وتكثر من الحديث عن الارتباط بالاتحاد السوفييتى عن ذى قبل •

جلست فى دار الأوبرا الألمانية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ م مشدود الأعصاب ، متشوقا الى ما سيقال فى هذا المؤتمر •

افتتح المؤتمر الثانى للاتحاد الاشتراكى بعزف قطعة « بيتهوفن » الموسيقية : « تدشين المنزل » ، وبعد الانتهاء منها ، انتظرت — متلهفا — خطب زعماء القمة ، فسوف يلقى « فيلهيلم بيك » التقرير السياسى ، و « ايريش ف • جنيفكى » بيانا عن المنظمات ، وسيتحدث « أوتو جروتيفول » عن مشاكل الوحدة الألمانية ، و« فالتر أولبريخت » عن النهضة الاقتصادية ، وتشييد الدولة فى المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

لم تلغ رسميا — أثناء أيام مؤتمر الحزب الخمسة — نظرية الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية ، ولكن أظهر التركيز المستمر على « انجازات الاتحاد السوفييتى الرائعة » الانعطاف الذى أقلقنى ، وأصبح تبريره ثقيلا على باستمرار • حاول « ماكس فيشنر » فى خطابه الافتتاحى ايجاد أسلوب وسط بين عمل مشترك ، أشد التحاما مع الاتحاد السوفييتى وبين السياسة المستقلة : « •• لا يدل اقرار العمل المشترك مع الاتحاد السوفييتى فى النواحى الاقتصادية والثقافية ، على

التخلى عن ممارسة سياسة مستقلة ، ولا تشير ممارستنا سياسة ألمانية ، الى أننا نعادى الاتحاد السوفييتى » •

وذهب « أوتو جروتيفول » الى أبعد من هذا : « •• تتمتع قوة النظام الديمقراطى الجديد ، الذى قام فى شرق وجنوب أوروبا ، وكذلك أيضا فى المنطقة التى يحتلها السوفييت ، بمساندة الاتحاد السوفييتى » •

لاحظت فى اليوم التالى مباشرة مغزى هذا التفسير بالنسبة للتطبيق السياسى ، فقد اتخذ « فيلهيلم بيك » فى تقريره السياسى الكبير موقفا من مشكلة ، طالما أزعجتنا جميعا آنذاك ، ألا وهى : فك آلات المصانع •

ففى أوائل عام ١٩٤٧ م أكد المارشال « سوكولوفسكى » لزعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، أن هذه العملية توقفت ، فهلل لهذا القرار فى المؤتمرات ، واعتبر نصرا ، ونجاحا للاتحاد الاشتراكى ، فقدموا الشكر الخنوع الى الادارة العسكرية السوفييتية على هذا الكرم البالغ !

ولكن بعد هذا ، — أى بعد أسابيع قليلة — استؤنفت عملية فك آلات المصانع ، فكان هذا نقضا سافرا للوعد • علت أصوات فى الحزب تطالب باستنكار اجراءات فك المصانع ، ولو بصيغة مؤدبة ومقتضبة •

لم يسمح لنا بذلك ، ووجد كل القياديين — الذين كان من واجبهم التحدث فى المصانع ، أو فى الاجتماعات العامة — أنفسهم فى موقف حرج •

تحتم على « بيك » فى مؤتمر الحزب الثانى أن يبرز نقض رجال السلطات السوفييتية للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمام الاتحاد الاشتراكى بوقف عملية فك المصانع :

« لقد قام المجلس الأعلى للحزب بتقديم الشكر على وعد الادارة العسكرية السوفييتية الكريم ، واعتبره دليل ثقة فى الشعب الألمانى » •

ورغم هذا فقد انتشرت فى الأيام الأخيرة أخبار عن فك خطوط السكك الحديدية مما سيسبب مشاكل كبيرة لشئون النقل والمواصلات ، وقد طالبنا هنا أيضا بحصر هذه العملية فى أضيق الحدود ، فبين المارشال « سوكولوفسكى » أن الماكينات التى تحل الآن من مجموعة عديدة من شركات المناجم ، ليست استئنافا للعمل الذى أعلن عن وقفه فى السابق ، بل تكميلا لفك منشآت المناجم ، التى تركت مؤقتا عند تنفيذ عملية فك سابقة ••• » •

خيم صمت مطبق عند سماع هذه الكلمات ، اذ كان كل الحاضرين

يعلمون أن شرح « بيث » لا يطابق الحقيقة ، لأن عملية الفك كانت قد استؤنفت على نطاق واسع فى ذلك الوقت .

أوضح لى هذا التفسير من جديد ، قوة ارتباطنا فى كل المشاكل السياسية الراهنة بتعليمات وقرارات الادارة العسكرية السوفييتية ، وأعلن الآن — على خلاف ما كان فى عامى ٤٥ — ١٩٤٦ م — عن الارتباط الوثيق بالاتحاد السوفييتى .

كان الوقت هو مساء اليوم الثالث فى المؤتمر ، وقف « هيرمان ماتيرن » عند منصة الرئاسة ، وصاح فى الصالة : « الآن لى الشرف الكبير فى أن أذيع من بين الرسائل العالمية الكثيرة الى المؤتمر الرسائل الهامة جدا » .

ثم قرأ الرسالة السوفييتية التى وقع عليها « سوسلوف » سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ، فاتجهت كل الأنظار الى « اللوج » الذى كان يجلس فيه « سوسلوف » كضيف فى المؤتمر ، وعند ذلك وقف « سوسلوف » وصاح باللغة الألمانية : « عاش الاتحاد الاشتراكى الألمانى » ! وبعد أن هدأ التصفيق لهذه التحية ، صاح « ماتيرن » فى الصالة من على منصة الرئاسة : « عاش الحزب الشيوعى السوفييتى .. عاشت لجنته المركزية .. عاش زعيمه « ستالين » .

تغير الاتحاد الاشتراكى الألمانى كثيرا فى عام ونصف ، أى منذ مؤتمر الوحدة ، فقد كان مثل هذا الهتاف مستحيلا فى مؤتمر الوحدة ..

كنت فى يوم الأحد بعد المؤتمر راكبا فى عربة مع قيادى كبير فى المنطقة السوفييتية فسنحت الفرصة لحديث بيننا ، وقررت ألا أتركها تمر دون استغلالها :

— « يقال — وأنت تعلم بالتأكيد أحسن منى — أن عملية فك الآلات قائمة على قدم وساق . لقد أجريت المشاورات حول توقف هذه العملية باسم الحزب ، ولاقت تأييدا شعبيا كبيرا . لا تستطيع أن تتصور مغزى هذا بالنسبة لنا الآن . فهل سدت كل الطرق حقيقة للوصول الى وقف عملية فك الآلات ؟ أو ليس فى امكان الحزب — على الأقل — التبرؤ منها رسميا » ؟

نظر القيادى الكبير الى بهدوء ثم قال : « لا .. ليس فى الامكان هذا » ؟

— « ولكن .. ماهو رأيك الشخصى » ؟

أخذ نفسا عميقا ، فكان أشبه بالتأوه ، ثم أخرج الكلمات بصورة متقطعة وبصوت منخفض :

ـ « هم لا يعملون لنا أى حساب » .

وكان المقصود بضمير « هم » الزعامة السوفييتية . ولكن ، انتصر ـ أيضا فى هذا الحديث المحصور بيننا نحن الاثنين ـ الالتزام الذاتى ، الذى حقن به كل قيادى عن طريق التثقيف ، والعمل سنين طويلة فى أجهزة الحزب :

ـ « من الأحسن ألا نتحدث فى هذا الموضوع » .

لكننا عدنا بعد ربع ساعة الى « الحديث الساخن » مرة أخرى : تصرف الجنود السوفييت ومنع الاتحاد الاشتراكى الألمانى من الكلام فى هذا الموضوع ، ومن أن يتخذ منه موقفا .

حاولت الكلام معه من جديد :

ـ « أستطيع فهم هذه الأشياء كلها ، ففى كل احتلال يحدث مثل هذا ، وخاصة مع التكوين الحالى لقوات الاحتلال السوفييتية فى ألمانيا ، فقد سقط فى الميدان أحسن المدربين فى عام ١٩٤١ م ، وينحدر معظم الجنود الموجودين الآن من قرى نائية ، فلم يأخذوا قسطا كبيرا من التربية ، ولكن يمكن أن نتحدث عن هذه الأشياء بوضوح ، وأن نحاول بيانها ونقدها ، فنتفادى بذلك ضياع هيبة حزبنا . فلو لم نتحدث عن هذا الموضوع ، فسيرتكب ذلك آخرون ، وستستخدم هذه الوقائع لتحريض وطنى عام » .

هز القيادى رأسه ، وظهر أنه يوافقنى فى هذا الرأى ، ولكنه لم يقل شيئا .

ـ « كنت فى العام والنصف الماضيين ، مرات عديدة فى موسكو ، ألم تحدث ـ على الأقل ـ محاولة لاثارة هذه المشكلة » ؟

ـ « نعم .. قمنا بمحاولة مع « ستالين » .

ثم صمت مرة أخرى ، ولكنى لم أتركه :

ـ « والى أى شىء توصلتم » ؟

ـ « أجاب « ستالين » بمثل روسى قديم : « يوجد خروف أسود فى كل أسرة » . ولم يقل شيئا أكثر من هذا ، ثم عندما بدأ واحد منا فى شرح المسألة ، واستنباط ما يترتب عليها من عواقب ، قاطعه « ستالين »

قائلا : « أنا لا أتحمل أحدا يسيء الى الجيش الأحمر » وبهذا انتهى الحديث » •

لم أفتح حديثا فى موضوع آخر من المواضيع الحساسة ، ولكنى أدركت فى هذا اليوم — يوم الأحد — من سبتمبر سنة ١٩٤٧ م أننا ربطنا بالاتحاد السوفييتى بسلسلة ربطا محكما •

* * *

معهد الحزب العالى « كارل ماركس »

من الأمور العادية فى الجهاز الستالينى ، أن القيادى فى زعامة الحزب يمكث فى وظيفته مدة تتراوح بين عام ونصف ، وثلاثة أعوام فقط ، ثم ينتقل الى مركز آخر • وأنا أعمل منذ عامين فى جمع المواد الثقافية وتأليف كراريسها ، والقاء محاضرات فى المعهد العالى للحزب ، وفى مدارس الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى المحافظات ، وفى المدرسة المركزية لمنظمة « الشباب الألمانى الحر » — وكان مقرها فى « الفيلا » التى كان يسكن فيها « جوبلز » عند بحيرة « بوجين » — •

وعندما استدعيت فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ م لمقابلة رئيسى المباشر « أنتون آكارمان » ومقابلة رئيس قسم التدريب فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، أدركت أننى سأكلف بعمل جديد •

تشابه قول كليهما :

— « تهتم زعامة الحزب اهتماما كبيرا بتوسيع العمل فى المعهد العالى للحزب ، معهد « كارل ماركس » ، ولهذا أقترح تدعيم هيئة التدريس ، بأن تعمل لمدة سنتين تقريبا فى المعهد ، وتستطيع أن تختار القسم الذى تحب أن تعمل فيه ، موافق » ؟

— « موافق » •

سررت بهذا الاقتراح ، فمن الآن — هكذا قلت لنفسى — لم أعد مجبرا على الدعاية للقرارات السياسية ، والاجراءات ، التى يتخذها الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، بل سوف أتمكن من الابتعاد قليلا عن السياسة المرسومة ، وأشغل نفسى — فى هدوء — بالمشاكل النظرية •

كان المعهد العالى للحزب آنذاك فى « ليبنفالدى » على بعد ٣٥ كيلومترا تقريبا شمال برلين • ذكرنى المبنى بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « كوشنارينكوفو » • استقبلنى « رودولف ليندار »

مدير المعهد آنذاك ، وكنت قد تعرفت عليه فى موسكو باسمه الحركى « باول جريتس » ، فهو من الذين لا زالوا على قيد الحياة من المحاربين القدامى : كان عضوا فى لجنة تأسيس رابطة « سبارتاكوس » فى عام ١٩١٦ م ، ومن مؤسسى الحزب الشيوعى الألمانى • كان مشغولا فى أيام نفيه فى الاتحاد السوفييتى بكتابة تاريخ الحزب الشيوعى الألمانى •

حيانى « رودولف ليندار » بحرارة ، وشرح لى طبيعة العمل فى المعهد العالى للحزب : « عندنا الآن دورات دراسية ، مدة الواحدة ستة شهور ، ولكننا سنبدأ من الآن أول دورة دراسية تستغرق سنتين ، وستستمر بجانبها أيضا دورة النصف سنة ، ولكن بأسلوب آخر » •

— « كنوع مختصر لدورة السنتين » ؟

— « لا •• هناك فرق هام : نقبل فى دورة السنتين ، رفقاء شبان ذى قدرة على التطور ، انضموا للحزب بعد عام ١٩٤٥ م ، وأتموا دراستهم فى مدارس المراكز ، ومدارس المحافظات ، ونهيئهم للمراكز أساسية ، ليقوموا بأعمال ذات مسئولية فى الحزب • أما دورة النصف سنة ، فهى على العكس من ذلك ، اذ يقبل فيها فى المقام الأول ، رفقاء كبار السن ، كانوا عاملين فى الحزب الشيوعى ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى قبل عام ١٩٣٣ م ، لنهيئهم لتقبل الواجبات والمعارف السياسية الجديدة ، ونرفعهم بذلك درجة أعلى فى الحزب ، ويجب أن نهتم بصفة خاصة بالرفقاء من غرب ألمانيا » •

— « من غرب ألمانيا » ؟

— « نعم •• فربع المشتركين تقريبا فى الدراسة ، سواء فى دورة السنتين ، أو فى دورة النصف سنة ، هم أعضاء فى الحزب الشيوعى الألمانى من غرب ألمانيا • تكفلنا بتثقيفهم • ومن المفهوم طبعا أنهم يدرسون هنا بأسماء مستعارة ، ونفس الوضع بالنسبة للرفقاء النرويجيين ، الذين تكفل حزبنا بتثقيفهم ، لأن الحزب فى النرويج ليس عنده سوى المدارس الأسبوعية » •

أطلعنى « رودولف ليندار » على المكتبة الغنية بالمراجع ، ثم قادنى الى « قسم وسائل التدريس » حيث كان بعض العاملين منهمكين فى ذلك الوقت فى طبع المادة الدراسية •

فشرح لى :

— « هنا تطبع كل المواد الدراسية عندنا ، فيحصل كل دارس قبل

كل محاضرة على برنامج مختصر لها ، مبين فيه قائمة مراجع الموضوع الذى ستعالجه ، وبعد الانتهاء من المحاضرة يحصلون على نسخ تدور حول هذا الموضوع ، ويستطيعون أن يذهبوا الى صالة المطالعة أو الى حجراتهم ، ويستذكرون المحاضرة وحدهم ، وفى اليوم التالى — وأحيانا تمتد المدة ، حسب الموضوع — تعقد قاعة بحث لمدة ثلاث ساعات للمناقشة . ويعقد امتحان تحريرى كل ثلاثة أشهر ، وبعد كل فصل دراسى يعقد امتحان شفوى وتحريرى فى كل مادة » .

أطلعنى العاملون على بعض المطبوعات ، فرأيت هذه الملاحظة مكتوبة على الصفحة الأولى من كل نسخة :

« للاستعمال الدراسى الداخلى فقط »

وكتب فى آخر النص أسماء القياديين المسئولين عن اختيار المادة والتصحيح اللغوى وتحرير النص . وبهذه الطريقة يمكن معرفة المسئول عن الخطأ السياسى .

لم يكن من النادر أن تأخذ المواد الدراسية ، والمصادر ، والنصوص التى تتعلق بمحاضرة واحدة عشرات الصفحات ، المكتوبة على الآلة الكاتبة ، على مساحة ضيقة بين السطور . وعلى العكس من ذلك فى برنامج المحاضرة ، اذ يقتصر فيه على اشارات وتلميحات للموضوع فقط .

* * *

وهذا مثال لبرنامج محاضرة المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى :

للاستعمال الداخلى فقط

F. 1. 43 - D - 1 - 9 - 4 - 8

فلسفة ، برنامج المحاضرة :
الجدلية والمنطق الشكلى .

أهمية موضوع ادراك جوهر التناقض الجدلى والنظرية الجدلية .
الاشارات الكلاسيكية فى هذا الموضوع : « انجلز » ، عن المنطق الشكلى كجزء من الفلسفة . « لينين » ، عن ضيق المنطق الشكلى وعن جوهر الجدلية ، المنطق ونظرية المعرفة .

بأى التأويلات يكون المنطق الشكلى مسـوغا وضروريا ؟ الفرق بين التناقض الجدلى واللامعقول •

أنواع مختلفة للتناقض الجدلى (جوانب متعددة ، اتجاهات ، قوى فى الظواهر الطبيعية ، مراحل ، حركات ، عدم الدوام ، التناقض بين جوهرين) • الخ •

التناقض فى ضوء علم الطبيعة الحديث (تركيب الذرة ، الطبيعة المزدوجة من النور والمـادة) •

عدم وفاء القانون المنطقى بالغرض ، كوسيلة لتوضيح الحقيقة •

الأهمية العملية للعلاقة بين الجدلية ، والمنطق الشكلى (وحـدة فى الجوانب المتعددة ، والخواص المزينة ، وقابلية التحرك ، والكلية مع البقين ، والوضوح ، والعمق فى الجدلية) •

المسئول « فكتور شتيرن » •

المراجع « هانز — يؤاخيم مينكى » •

* * *

قدمنى « رودولف ليندار » فى اليوم التالى لرؤساء الأقسام الأربعة فى المعهد العالى للحزب •

كان يتولى رئاسة قسم التاريخ « ايريش باتيرنا » الذى اشتغلت معه فى خريف عام ١٩٤٥ م فى قسـم الدعاية السياسية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وكان مسئولا آنذاك عن شئون التعليم •

كان « ايريش باتيرنا » — وهو من المدافعين المتحمسين عن اصلاح التعليم — عضوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى عهد الجمهورية الفايمرية ، ولكنه انضم الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٣١ م • قضى سنوات عديدة مسجونا فى ليمان « براندينبرج » أثناء العهد النازى ، وأخيرا أتيحت له الفرصة لتحقيق أهدافه التربوية ، وهو يعمل بحماس شديد لا يعرف الكلل فى تاريخ الحركة العمالية الألمـانية ، وفى التأملات الماركسية فى التاريخ العام ، فقد كان طرازا للبحث العالم الثورى •

فرحت أيضا بلقـاء « فريدا روبينر » التى تشرف على قسـم « أسس الماركسية اللينينية » مرة أخرى ، فقد تعرفت عليها فى الاتحـاد السوفييتى ، عندما كانت تعمل فى القسم السابع فى الادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر • وهى تحاول الآن اقناعى بالعمل معهـا فى القسم ، اذ قالت لى بوضوح :

— « أنا أحتاج الى ثقل ضد الديمقراطيين الاشتراكيين » .

عرفت « فيكتور شتيرن » أيضا من موسكو . لعب « شتيرن » فى العشرينات دورا كبيرا فى الحزب التشيكوسلوفاكى ، وكان عضوا فى البرلمان التشيكوسلوفاكى . وعندما كنت أتردد عليه فى منزله زائرا فى عام ١٩٤١ م — كان من القياديين القلائل ، الذين لم يقيموا فى فندق « لوكس » — لم يكن واضحا ، فى أى بلد سيستأنف نشاطه بعد الانتصار على « هتلر » وكيفما كان الأمر ، فلم يرسل الى تشيكوسلوفاكيا بل الى ألمانيا ، مرفوعا الى وظيفة أستاذ .

ألف كتابا عن المادية الجدلية(١) ، وفيما بعد كتابا آخر عن « ستالين كفيلسوف » وهو رئيس قسم الفلسفة فى المعهد العالى للحزب .

لم أكن أعرف « ألفريد ليمنيتس » رئيس قسم الاقتصاد السياسى من قبل . فقد قضى عهد النازية مسجونا فى ألمانيا .

كان رؤساء الأقسام الأربعة من الحزب الشيوعى . كان المعهد العالى للحزب هو أحد المؤسسات القليلة ، التى لم يوجد فيها آنذاك مساواة بين أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وأعضاء الحزب الشيوعى السابق . وكان أقل شىء للتدليل على « المساواة الرمزية » هو نائب عميد المعهد ، فقد عين فى هذا المنصب ديمقراطى اشتراكى ، هو « باول لينسر » ، وكان يعمل سابقا فى القسم الثقافى ، فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى سنين عديدة ، ولكنه لم يكن طبعا قوة أمام سيطرة أعضاء الحزب الشيوعى فى المعهد العالى للحزب ، فاضطر الى أن يحصر عمله فى القاء محاضرة بين الحين والآخر ، وفى تنظيم الحفلات الثقافية فى المعهد .

قابلت أيضا « فالتر كوبى » — وهو من « مجموعة أولبريخت » — وكان قد نقل من العمل السياسى الى وظيفة مشرف خدمات فى المعهد العالى للحزب . وهو يشعر هنا بالارتياح ، غير أنه كان يحب أن يخاطب دائما بلفظ « أيها الرفيق المدير » ! كما كان الحال فى وظيفته السابقة .

قررت بعد تفكير أن أعمل فى قسم التاريخ ، فتعرفت على أسلوب عمل « أعلى طبقات الحزب » .

---

(١) صودر هذا الكتاب فيما بعد ، وسحب من السوق .

لاحظت فى الأيام الأولى نواحى الاختلاف فى المعهد عن مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالميـة ، فقد كانت تجهيزات المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى « ليبينفالدى » فى عام ١٩٤٧ م نموذجية ، حتى أحسن منها فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عامى ٤٢ — ١٩٤٣ م .

كانت كميات للطعام — رغم أننا كنا فى عصر نعانى فيه من نقص المـواد الغذائية — كبيرة . ويأخذ كل الدارسين فى المعهد مصاريف جيب ، وتستمر الأسرة فى صرف مرتب أو أجر عائلها الذى سحب من عمله ليدرس فى المعهد (١) .

لم يكن النظام آنذاك — فى خريف عام ١٩٤٧ م — شديدا مثل ما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كان مسموحا للدارسين بكتابة الخطابات ، وبالسفر فى نهاية الأسبوع الى برلين . كذلك كان مسموحا لهم أثناء الأسبوع بمغادرة حرم المعهد . نعم .. كان هناك « نقد ، ونقد ذاتى » ، ولكنه لم يكن شيئا بالنسبة لمـا شاهدته فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

كذلك لم تكن قاعات البحث صعبة ، نعم .. انتقدت فيها أيضا بشدة الآراء « الخاطئة » والتعبيرات « الخاطئة » ، ولكن لم يؤد ذلك آنذاك الى الطرد من المدرسة أو من الحزب .

كنت أرى أن هذا المعهد — بالمقارنة مع مدرسـة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — حر تقريبا ، أما الدارسون الذين لم يكن لديهم امكانية هذه المقارنة ، ولم يكن عندهم أى فكرة عن وضع المعهد العالى للحزب فى بعض السنين ، فقد كان لهم رأى آخر ، تذمر أحد أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق قائلا : « أنا أشعر هنا ، كما لو كنت فى سجن » . وحكى لى عن مدارس التثقيف فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ففهمت شعوره .

لم يكن الاختلاف بين المعهد العالى للحزب « معهد كارل ماركس » ، وبين مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى الجو الحر نسبيا فقط ، بل فى نوع الدراسة أيضا ، اذ لم يوجد فى المعهد العالى لحزب

---

(١) طبقت قاعدة عامـة فى عام ١٩٥٢ : فيتقاضى الدارس المتزوج ٨٠٠ ماركا ، وغير المتزوج ٦٠٠ ماركا .

الاتحاد الاشتراكى الألمانى تدريبات عسكرية ، ولا تعليم أساليب العمل غير المشروع — وعلى النقيض من ذلك ، فقد كانت الدراسة النظرية أوسع مما كانت فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية : يأخذ الطلبة فى مادة الفلسفة أولا نظرة عامة عن تاريخ الفلسفة ، ثم يدرسون الفلسفة الماركسية — اللينينية بالتفصيل .

ويدرسون فى الاقتصاد السياسى كتاب « رأس المال » لـ« كارل ماركس » ، فقرة فقرة ، ونصوصا من مؤلفات « هيلفيردينج » و « روزا لوكسمبرج » الاقتصادية ، والنظرية الاستعمارية اللينينية ، والاقتصاد السياسى فى الاشتراكية .

وألزمنا نحن المدرسين فى قسم التاريخ بتدريس نظرة عامة فى تاريخ العالم ، والتركيز على عهود الانتقال : التحول من مجتمع العبيد الى الاقطاع ، والتحول من الاقطاع الى الرأسمالية ، ثم يعقب ذلك محاضرات وقاعات بحث عن حرب الفلاحين الألمانيين ، وحركة « الهوسيتين »(١) ، والثورة الانجليزية ، والثورة الفرنسية ، وحرب نابليون ، وحرب الاستقلال فى أمريكا — وبتفصيل كبير — ثورة عام ١٨٤٨ م فى مختلف البلاد الأوروبية ، وبعد هذه النظرة العامة ، ندرس تاريخ ألمانيا ، ابتداء من قيام « براندينبرج » ، وتطور الدولة البروسية ، ودور « فريدريش الثانى » ، وتوحيد ألمانيا بقيادة « بسمارك » .

لم يدرس تاريخ الحركة العمالية الألمانية كمادة مستقلة ، بل فى اطار التاريخ الألمانى العام من سنة ١٨٤٨ م حتى اليوم . ومن المسلم به أن هذه الحقبة أخذت الجزء الأكبر من مقرر التاريخ فى المعهد العالى للحزب .

كانت محاضرات مادة « أسس الماركسية — اللينينية » مشابهة لما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كانت هى الموضوعات العادية التى تدرس فى كل مدارس الأحزاب الشرقية ، من « أيزيناخ » حتى بكين : الطبقة والكفاح الطبقى — نظرية الدولة — أشكال وحقائق الديمقراطية — دور الطبقة العمالية — نظرية الحزب — النضال ضد

---

(١) أسسها المصلح « يوحنا هوس » فى القرن السادس عشر . م شامة .

الاستغلال — الاصلاح والثورة — الاستراتيجية والتكتيك — مشاكل الفلاحين — المشكلة الاستعمارية العالمية •

وكما كان الحال فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالميـــة ، فقد اعتنى عناية كبيرة بالرد على النظريات « المعادية » والمفاهيم « المضادة » •

كان مقررا أيضا فى قسم التاريخ بيان — مع موضوعات أخرى — الطبيعة العسكرية لمنطقة « مارك — براندينبرج » وطرد السلافيين — لم تكن قد وجدت « الجبهة الوطنية » آنذاك — وتوضيح الطبيعة الرجعية فى البروسية ، وبنوع خاص شجب الأساطير التى كتبت عن « فريدريش الأكبر » •

لم يركز — مراعاة للقياديين من الحزب الديمقراطى الاشتراكى — على دراسة انحراف « رودولف هيلفردينج » ، و « كارل كاوتسكى » عن طريق الاصلاح فى الأعوام المتأخرة • وكان نفس الوضع بالنسبة لـ« لاسالل » • نعم •• لقد نقد رأيه ، ولكن لم يصور دوره فى الحركة العمالية الألمـــانية تصويرا سلبيا بمثل ما سمعته فى مدرســـة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

لم يزل « أوجست بيبيل » — الذى مدح فى مؤتمر الوحدة فى عام ١٩٤٦ م — مقدسا فى ذلك الوقت ، وتهامس المدرســـون من الحزب الشيوعى مع بعضهم : « يجب أن نكون حذرين فى دراسته مثل حذرنا فى معالجة بيضة نيئة » •

اعتنى أيضا فى المعهد العـــالى فى ذلك الوقت بألا نكتفى بشرح الدعوى ، بل بالتدليل على صحتها أيضا ، كما طلب من الدارسين قراءة ودراسة الآراء المعارضة •

درست الآراء المعارضة والمعادية بتركيز خاص فى قسم الفلسفة ، فقد كان الدارسون يتلقون باستمرار كيفية دحض المفاهيم الخاطئة لـ« الحتمية المـــاركسية » ، ويدرسون بالتفصيل العلاقة بين المنطق والجدلية ، وكانت تطبع لهم آنذاك مذكرات تحت عنوان : « الهجوم العصرى على المـــاركسية » تضمنت نصوصا من مؤلفات وطنية ، وديمقراطية اشتراكية ، غير أنه وجد — كما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — استثناء هام : فلم توجـــد فى مكتبة المعهد مؤلفـــات « تروتسكى » و « بوخارين » ولا مؤلفات أعضاء المجموعات المعارضة الهامة ، ولا كتب الأعضاء الشيوعيين السابقين ، الذين اختلفوا مع « الســـتالينية » ،

كذلك لم ينقل أى نص من هذه الكتب فى المذكرات التى كانت تطبع فى المعهد ؛ فقد اعتبر اعطاء هذه المؤلفات للطلبة والمدرسين فى المعهد العالى للحزب لدراستها ، اعتبرت عند زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى برلين الشرقية فى عام ١٩٤٦ م أمرا خطيرا ، بالضبط كما كان ذلك بالنسبة لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م فى « أوفا » .

ازداد هذا الاجراء حدة فيما بعد ، فلم يعد يسمح حتى بذكر أسماء أعضاء الحزب الشيوعى السابقين ، الذين انفصلوا فيما بعد عن « الستالينية » فعندما ذكر « آرتور دوِرف » — مدرس فى قسم « أسس الماركسية — اللينينية » ، ومقاتل سابقا فى أسبانيا — مرة فى احدى الدروس اسم « باول فروليش » — أحد رفقاء النضال مع « كارل لبكنيشت » ، و « روزا لوكسيمبرج » وانضم للمعارضة فى أواخر العشرينات — ، اندفعت رئيسة القسم « فريدا روبينر » كـ« آلهة الانتقام » الى المنصة ، وصاحت : « أنا لا أسمح بأن يذكر هنا أسماء الخونة المعارضين » .

كان أعضاء هيئة تدريس المعهد يقومون بالقاء ثلثى المحاضرات تقريبا ، ولما كان هناك فى كل قسم من الأقسام الأربعة — بجانب رئيس القسم — ثلاثة أو أربعة مدرسين ، وبعض المعيدين ، كان عند كل مدرس وقت كاف لتحضير المحاضرات .

لم تكن الرقابة آنذاك — أما اليوم فشىء آخر كما علمت ذلك — صعبة ، فقد اكتفى فى اجتماع القسم ببيان عناصر المحاضرات وقاعات البحث ، وترك للمحاضر وللمشرف على قاعات البحث مجال واسع نسبيا يتحرك فيه بحريته . ولم يطلب تقديم المحاضرة مكتوبة الا من عدد قليل — وهم الذين كان يطلق عليهم « المحاضرون الضعفاء » — وكذلك من المعيدين .

كان هناك — بجانب أعضاء هيئة التدريس — محاضرون من سكرتارية اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ومن هيئة تحرير مجلة « الوحدة » ، ومن جامعة برلين الشرقية ، كذلك كان يلقى — فى مناسبات — كبار القياديين فى الدولة غير المستقلة بعض المحاضرات ، فكان بعضها داخل المنهج العام وبعضها الآخر فى موضوعات خارج المنهج ، تتناول مجالات ضرورية للتثقيف العام .

فقد تحدث — مثلا — « كلاوس تسفايليتج » عن « مدخل إلى

مشاكل علم الأحياء » ، والأستاذ « ماير » عن « التطور التاريخى للآلات الموسيقية » ، والدكتور « بولاك » عن « المسائل القانونية » وعن « مشكلة العدالة فى الادارة الشعبية » ، والأستاذ « مويزيل » — وهو أستاذ فى جامعة برلين — عن « مسائل فردية فى تاريخ القرن التاسع عشر » •

كذلك عولجت الأحداث الأيديولوجية فى العالم الغربى بالتفصيل ، فعلى سبيل المثال ، عقدت ندوة كبيرة للطبيعيين والفلاسفة فى أوائل ابريل سنة ١٩٤٨ م فى « كلاوستال » — فى منطقة « هارتس » — ، فلم نحصل فقط على تقرير دقيق ، بل ألقيت أيضا محاضرات كثيرة فى مشاكل هذه الندوة •

لم يكن من السهل على كثيرا من الدارسين فهم المسائل الدقيقة فى العلوم الطبيعية ، وما شابهها •

كانت المحاضرات الاضافية عن المشاكل العالمية مهمة جدا ، فقد ألقى فى ذلك الوقت محاضرات عن الوضع فى الشرق الأوسط ، وعن الثورة فى الصين — ألقاها قيادى عاد لتوه من الصين — ، وألقى « داراماليف » — وهو عضو فى هيئة زعامة الحزب البلغارى — تقريرا مفصلا عن الوضع فى بلغاريا ، تجاوز ما قرأناه فى الصحافة •

كان الحديث فى المحاضرات الاضافية التى ألقاها قياديون من طبقة القمة عن بعض مسائل السياسة الراهنة لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى المعهد العالى أكثر حرية من الكلام فى الاجتماعات العامة ، وبهذا حصلنا على صورة واضحة للوضع فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وللصعوبات داخل الحزب — منع فى بعض الحالات عدم كتابة أى شىء مما يقوله المحاضر •

أخبرنا بعد أسابيع قليلة من وصولى — أى فى نهاية خريف عام ١٩٤٧ — فى اجتماع لأعضاء هيئة التدريس :

— « اقترحت الجهات المسئولة تطوير المعهد العالى للحزب وتوسيعه ، ولا تتسع المبانى الحالية فى « لييبنفالدى » لهذا الغرض ، ولذا فيجرى العمل فى الوقت الحاضر ، لتجهيز مقر للمعهد العالى فى « كلاين — ماخنوف » بالقرب من برلين • وسيتم الانتقال اليه فى أوائل عام ١٩٤٨ م » •

يبدو أنه عندما اتخذ هذا القرار ، لم يحسب أحد بعد ، أن العلاقة

بين الاتحاد السوفييتى ، وبين القوى الغربية ستتدهور بسرعة ، اذ لا يبعد المبنى الجديد لمعهدنا سوى كيلو متر واحد عن حدود المنطقة الأمريكية فى برلين •

دعانى « رودولف ليندار » فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٤٧ م :

— « سأسافر اليوم لمشاهدة المبنى الجديد ؛ فاذا أردت ، فتستطيع أن تأتى معى » •

لقد فاق ما رأيته فى عصر هذا اليوم من ديسمبر أقصى ما توقعته : خمسة مبانى حديثة ضخمة بالنوافذ الكبيرة ، فى وسط منتزه ، وجراجات ، وممرات تحت الأرض ، تصل الخمسة مبانى ببعضها ، ومئات من حجرات السكن المؤثثة بأثاث حديث • كل طالبين أو ثلاثة فى حجرة •

وكانت هناك « فيللات » صغيرة لسكن رؤساء الأقسام ، واذا كان عضو هيئة التدريس متزوجا ، يحصل على « فيلا » فى « كلاين — ماخنوف » واذا كان غير متزوج يأخذ شقة جميلة فى منزل جديد •

انتقلنا فى الأيام الأولى من يناير سنة ١٩٤٨ • فاتسع النشاط فى المعهد العالى للحزب ، اذ زاد عدد الدارسين فى الدورة الدراسية ، التى تستمر ستة أشهر ، والتى يعد فيها القياديون المسئولون • وفى نفس الوقت أنشىء عدد من الدورات الدراسية القصيرة •

بدا لنا فى أوائل عام ١٩٤٨ م — ولم يكن قد مر ثلاث سنوات كاملة على هزيمة ألمانيا الهتلرية — أن هذه المبانى الضخمة ، التى يتخرج منها مئات من القياديين ، هى أقصى حدود ما يمكن انشاؤه ، ولكنها كانت البداية فقط •

امتدت الدورة الدراسية ذات الستة أشهر — التى تعد القياديين المسئولين — فى عام ١٩٤٩ م الى تسعة أشهر ، ومنذ عام ١٩٥٠ م أنشئت دورة أخرى مدتها عام ، وبدأ فى خريف عام ١٩٥٠ م دراسة بالمراسلة فى المعهد العالى للحزب •

وامتدت مدتها فيما بعد من ثلاثة أعوام ، الى خمسة أعوام ، وفى فبراير سنة ١٩٥٣ بدأت دورة دراسية مدتها ثلاث سنوات ، ويعقد فى نهايتها امتحان عام • وأصبح — فيما بعد — للمعهد العالى الحق فى منح درجة الدكتوراة والأستاذية أيضا •

تخرج فى هذه الدورات الدراسية — وكانت تزداد باستمرار كل

عام — مئات وآلاف القياديين ، الذين تثقفوا ثقافة عالية ، فصاروا بذلك من المدافعين المتحمسين لأيديولوجية وتعاليم الحزب •

* * *

زيارة « أولبريخت » و « توليانوف »

لاحظنا بعد أسابيع قليلة من انتقالنا الى المقر الجديد — وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٤٨ م — أننا امام تحول فى « الخط » ، فقد كثرت زيارات « جروتيفول » و « بيـك » و « أولبريخت » للمعهد •

وألقى « أولبريخت » فى ١٦ ابريل سنة ١٩٤٨ محاضرة — استمرت خمس ساعات — عن الوضع العام فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، للتلميح لنا بالتغييرات القادمة • تكلم « أولبريخت » بصراحة عن أشياء ، بعضها لم يذع رسميا الا بعد نصف عام • كانت الملاحظات الهامة فى هذه المحاضرة التلميحية ما يلى :

— لم يمكن معالجة كثير من المشاكل بصراحة فى الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ م ، ولذا اضطر حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى أن يتقدم خطوة ، خطوة ، سواء أكان ذلك على أساس اعتبارات سياسية أيديولوجية ، أو مراعاة لوضع السياسة الخارجية ••

— تم ارساء أسس النظام الديمقراطى المناهض للفاشية حتى عام ١٩٤٧ م • والآن •• فى أوائل عام ١٩٤٨ م — حيث أصبح ٤٠ ٪ من الانتاج فى أيدى المؤسسات الشعبية ، وضعفت الرأسمالية ضعفا شديدا — يمكن أن تعتبر هذه المرحلة قد انتهت •

— ومثل ذلك فى مجال الزراعة ، فقد نفذ قانون الاصلاح الزراعى ، فقسمت مساحات الاقطاع الكبيرة ، فولت هذه الظاهرة الى غير رجعة • والآن •• يمكن الاعتماد على صغار الفلاحين ، والطبقة المتوسطة منهم فى تكوين منظمة ، للحيلولة دون رجوع الاقطاعيين الى السيطرة مرة أخرى ••

بين « أولبريخت » أن النضال الطبقى وصل الى ذروته بواسطة هذه المتغيرات الواسعة فى الأحوال الاجتماعية ، ولكن أصبحت صيغ وطرق النضال الطبقى شيئا آخر : « فلدينا الآن امكانية تنفيذ مطالبنا بمساعدة جهاز الدولة ، ويجب علينا من ناحية أخرى زيادة نشاط المنظمات الجماهيرية ، كى تغير سياسة الكتلة طبقا لجوهرها » ••

أصبح حزبنا حزب دولة ، يتحمل المسئولية الكاملة لحل مشاكل الشرطة ، والخطة الاقتصادية ، والزراعة ، والسياسة الثقافية ..

لعبت « سياسة الكتلة »(١) دورا كبيرا فى مرحلتها الأولى ، غير أن القوى الرجعية دبت فيها الحياة الآن فى الأحزاب الوطنية ، كى تعطل تنفيذ اجراءاتنا بحجة « دراستها وتمحيصها » ..

ولا نريد الآن سلوك الطريق المؤدى الى نظام الحزب الواحد ، ولكن نسعى الى أن يكون حزبنا ، هو لقوة الرائدة ، والمتحملة للمسئولية فى الدولة . غير أنه يجب علينا فى المرحلة الجديدة أن نتعاون مع كلا الحزبين الآخرين « ربما كان من الأفضل أيضا تأسيس بعض الأحزاب الجديدة » ..

لم يلق هذا الكلام عشوائيا ، فقد أعلن بعد شهرين عن تأسيس « الحزب الديمقراطى الوطنى » ، و « حزب الفلاحين الديمقراطى » . وكان الهدف من تأسيسهما اضعاف الحزبين الوطنيين « حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » و « الحزب الديمقراطى الليبرالى » الموجودين فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وتفتيت القوى السياسية الموجودة خارج حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

أخذنا استعدادنا — بعد سماع محاضرة « أولبريخت » فى المعهد العالى للحزب فى منصف ابريل — لذلك التغيير السياسى ، الذى غير الحياة بأكملها فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى فى خريف عام ١٩٤٨ م ، فتحولوا بذلك عن « كبح » موجة التطور فى المنطقة السوفييتية ، الذى كان سائدا حتى نهاية عام ١٩٤٧ م مراعاة للوضع فى بقية مناطق ألمانيا ، ومراعاة للعلاقة مع الحلفاء الغربيين ..

وضعت بداية « المرحلة الجديدة » — التى أنبأنا بها « أولبريخت » — مشكلة « الديمقراطية الشعبية » فى قائمة جدول أعمال ذلك النظام الذى تكون فى دول الكتلة الشرقية . كان تحديد مضمون وجوهر مفهوم « الديمقراطية الشعبية » حتى أوائل عام ١٩٤٨ م من المشاكل القليلة التى لم تحل ، ولم يصدر بعد بشأنها أى توجيه رسمى .

ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور تشوقنا الى ما سيحدث ، عندما أعلن « رودولف ليندار » بعد أيام قليلة من القاء « أولبريخت » محاضرته :

---

(١) وهى الكتلة الشرقية .

— « سيلقى الرفيق العميد « تولبانوف » — المستشار السياسى للادارة العسكريه السوفييتية — محاضرة عن موضوع « الديمقراطية الشعبية » •

درس العميد « تولبانوف » الفلسفة فى « لينجراد » ثم كان قياديا فى الحزب سنوات عديدة ، وسيلقى محاضرته باللغة الألمانية » •

وعلى الرغم من أن المحاضرة كانت مكتوبة وموضوعة أمامه ، فقد ارتجل الحديث وأخذ نصف وقت المحاضرة التى استغرقت ست ساعات ، فى تحليل قيام الديمقراطية الشعبية •

تحدث « تولبانوف » بالتفصيل عن « خاصتين من خواص قيام الديمقراطية الشعبية » — وجود الاتحاد السوفييتى ، والكفاح المشترك ضد الفاشية — ، وعن « الطبيعة المزدوجة للثورة الديمقراطية الشعبية » — لأنها فى نفس الوقت ثورة ديمقراطية وطنية — ، وعن الصفة المميزة للقوى الطبقية — تحالف الطبقة العمالية — والفلاحين ، والمثقفين ، والوطنية الصغيرة ، وبعض البرجوازيين المتحمسين لنوطن • ثم جاءت النقطة الحاسمة ، فقد وصفنا — حتى الآن — الديمقراطية الشعبية — وهى نظام دول الكتلة الشرقية — بالتقدمية ، وأحيانا أيضا بأنها الديمقراطية « الحقيقية » ، ولكن بين « تولبانوف » الآن أن الثورة الديمقراطية — « اذا سارت فى تطورها دون عقبات — تتحول مكرهة الى ثورة اشتراكية » •

فالديمقراطية الشعبية ، تهيىء للتطور الاشتراكى • ويأخذ النضال الطبقى فى بلاد الديمقراطية الشعبية أشكالا جديدة ، ويمكن أن يتحدث المرء عن نضال طبقى من أعلى ، ومن أسفل ، لأن الحزب يضع جهاز الدولة فى خدمة نضاله • فالديمقراطية الشعبية ، هى ديكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية ، التى تمارس فى شكل صيغة حكومة ائتلافية • ثم صاح « تولبانوف » بأعلى صوته :

— « •• اذا كان البورجوازيون قد نجحوا فى ممارسة ديكتاتوريتهم عن طريق الحكومات الائتلافية ، فقد نجحنا اليوم فى ذلك بطريق معاكس • دعوا البورجوازيون يعملون ضد الدولة فالديمقراطية الشعبية ستتطور الى ديكتاتورية « البروليتاريا » ، وليس ذلك عن طريق ثورة جديدة ، بل عن طريق التطور المستمر ، حيث يصبح تكوين حزب واحد

من الأمور المسلم بها ، وبنهاية الثورة الديمقراطية الشعبية ، يكون قد بدأ تحويل هذه الثورة الى ثورة اشتراكية » .

كانت ملاحظاته عن الوضع فى دول شرق أوروبا المختلفة فى أوائل عام ١٩٤٨ م هامة جدا :

— « .. لو تصورنا أن هناك نهرا كبيرا ، والديمقراطية الرأسمالية الوطنية على أحد شاطئيه ، وشكل الدولة الاشتراكية على الشاطىء الآخر ، فاننا نستطيع أن نقول : بلغت يوغسلافيا الشاطىء الآخر فعلا ، وتسبح بلغاريا الآن لقطع المسافة الأخيرة ، لتصل الى الشاطىء الآخر . أما بولندا وتشيكوسلوفاكيا فلا زالتا فى وسط النهر تقريبا ، وتأتى بعدهما المجر ورومانيا اللتان لا زالتا فى الثلث الأول ، بينما المنطقة السوفييتية فى ألمانيا ، فقد بدأت توا فى السباحة من الشاطىء الوطنى » .

فكرت فى اشارة « ميشا فولف » الى أن « تولبانوف » كان قد عارض رأى « آكارمان » فى خريف عام ١٩٤٧ م فى دوائر ضيقة ، فانتظرت متشوقا الى ما سيقال حول موضوع الطريق المختلف الى الاشتراكية .

والآن .. فى منتصف ابريل سنة ١٩٤٨ م ، يصرح « تولبانوف » علنا — فى مجمع عام ، فلم يعد مكان للحذر الآن — أن الوقت قد حان لتضييق دعوى الطريق المختلف الى الاشتراكية .

توجد أشكال خاصة تتطابق مع الظروف الوطنية ، ويمكن أن تكون الأشكال والطرق مختلفة ، ولكن المضمون سيكون — بل يجب أن يكون — متشابها ... ، اذ تدل التجارب على أنه لا يوجد طريق وطنى خاص للمرحلة الانتقالية الى الاشتراكية فى يوغسلافيا ، يختلف عن الطريق الوطنى فى بولندا ، أو فى المجر ، أو فى تشيكوسلوفاكيا (١) .

طرحت محاضرته سيلا من المشاكل الجديدة ، فأبدى استعداده

---

(١) نشرت محاضرة « تولبانوف » التى القاها فى المعهد العالى للحزب ، بصيغة مختصرة ، لينة النغمة ، فى مجلة « العالم الجديد » موقعا عليها باسم مستعار هو « ا . برلينج » ونزلت التعليمات الى كل ادارات وهيئات الحزب ومنظماته ، بدراسة هذا المقال دراسة دقيقة ، ما كلفت مدارس المراكز ومدارس المحافظات بادراجه فى مقرراتها الدراسية . وطبعا لم يذكر ان وراء اسم « ا . برلينج » يختفى المستشار السياسى للادارة العسكرية السوفييتية .

للحديث مع محاضرى ومدرسى المعهد العالى عن بعض مسائل « اضافية » والاجابة على الأسئلة •

كنا نجلس — بعد نصف ساعة من انتهاء المحاضرة — مع « تولبانوف » فى حجرة العميد ؛ فوجه الينا تحذيرا هاما :

— « كل ما يقال هنا هو للمدرسين فقط ؛ فلا يجوز التحدث به فى الحلقات الدراسية » •

أعطانا « تولبانوف » تلميحات الى قرب حدوث توتر فى العلاقات الدولية ، والى « الاسراع فى التطور السياسى » فى المنطقة السوفييتية •

وفى النهاية روى لنا شيئا عن الاستعدادات القائمة لتكوين حزب جديد :

— « قمنا فى الادارة العسكرية السوفييتية بسلسلة من البحث عن أحوال الأعضاء والقياديين فى الحزب النازى السابق ، فاقتنعنا بأنه يوجد قوى يمكن الانتفاع بها ؛ انضمت هذه القوى انضماما لا قيمة له الى منظمات الحزب والمنظمات الجماهيرية ، وقد رأينا الآن فصلهم من هذه المنظمات ودفعهم الى نشاط آخر — وتحدثت مع بعضهم حديثا مفصلا — ؛ ألا وهو انضمامهم الى حزب جديد — رأينا أن من الأفضل تكوينه — يكون فى المنطقة السوفييتية ، يجمع هذه القوى ويوحدها ، لتستغل فى تطور واسع فى المنطقة السوفييتية ؛ وسيطلق على هذا الحزب اسم : « الحزب الديمقراطى الوطنى » ، وسوف ينبغى أن تعطى هذه القوى امكانية ظهور أكبر فى المنطقة السوفييتية • وانتقلنا فى هذا المجال أيضا الى « مرحلة جديدة » •

* * *

ظهر الحزب الديمقراطى الوطنى بعد شهرين تقريبا ، وبالتحديد فى ١٦ يونيو سنة ١٩٤٨ م • وعندما كنت أتجول فى « كلاين — ماخنوف » مع أحد المدرسين ، اكتشفنا اليافطة الكبيرة الأولى للحزب الجديد على مسافة قريبة جدا من المعهد العالى للحزب ورأينا هذا الشعار مكتوبا عليها بالخط العريض : « ضد الماركسية — من أجل الديمقراطية » وكتب أسفل اليافطة بالخط الصغير جد : « بتصريح من الادارة العسكرية السوفييتية » • تلك الادارة التى لم تصرح فقط بهذه اليافطة ، بل من المحتمل أنها حثت على كتابتها وتعليقها ليراها الجمهور •••

جاء الينا العميد « تولبانوف » مرة اخرى بعد بضعة أسابيع من انضمامه محاضرا عن « الديمقراطية الشعبية » ، غير انه لم يكن محاضرا فى هذه المرة . لقد جاء ليحضر اجتماعا صغيرا مع ممثلى اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية الأجنبية ، ومن بينهم ممثلون من النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنرويج • وكان « بيك » و « داليم » ضمن المشتركين فى هذا الاجتماع ، عن اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى . كذلك اشترك فيه من المعهد العالى للحزب ، « رودولف ليندار » واثنان من المدرسين ، كنت أحدهما •

ألقى قياديو اللجنة المركزية من البلاد الأخرى ، تقارير قصيرة عن الوضع فى بلادهم • ووجه « فيلهيلم بيك » فى آخر الاجتماع كلمة شكر الى العميد « تولبانوف » ، والى سلطة الاحتلال السوفييتى ، ولم يكد ينتهى من هذه الا وعقب « تولبانوف » مبتسما :

— « أيها الرفقاء •• يشرفنى أن يكون لدى رفيقنا « بيك » هذا الظن الحسن بسلطة الاحتلال السوفييتى ، ولكنى أحب أن أقول : ان سلطة الاحتلال السوفييتى ارتكبت أخطاء فظيعة وشنيعة فى ألمانيا ، ومن الصعب جدا — للأسف — اصلاحها ، ولا أستطيع أن أقدم سوى عذر واحد ، هو أننا لم نهتم اطلاقا من قبل بالاحتلال الاشتراكى • — الاحتلال الاشتراكى ! كان هذا شيئا جديدا كلية بالنسبة لنا • ربما أستطيع أن أؤكد فى هذا المحيط أنه اذا اضطرنا عدونا فى المستقبل الى تنفيذ احتلال اشتراكى ، فسوف نتصرف تصرفا أحسن ، بناء على ما تعلمناه من تجارب — فى ألمانيا » •

رجعت الى منزلى مفكرا ، جزعا من هذا التعبير « الاحتلال الاشتراكى » الذى صرح به « تولبانوف » بطريقة لينة مقبولة •

مضى عام ١٩٤٦ م ، وازداد عندى الشك فى أشياء كثيرة •

احتلال اشتراكى — ألم تكن النهاية الأخيرة لمفهومين انفصلا عن بعضهما ؟ ألم يكتب « فريدريش انجلز » :

— « لا تستطيع « البروليتاريا » المنتصرة اكراه شعب أجنبى على أى ابتهاج ، دون أن تدغن بذلك انتصاره الذاتى » ؟ (١) •

أصيب شكلى « الموزاييكى » وترددى بحجر جديد !

---

(١) فريدريش انجلز : خطاب الى « كارل كاوتسكى » فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ •